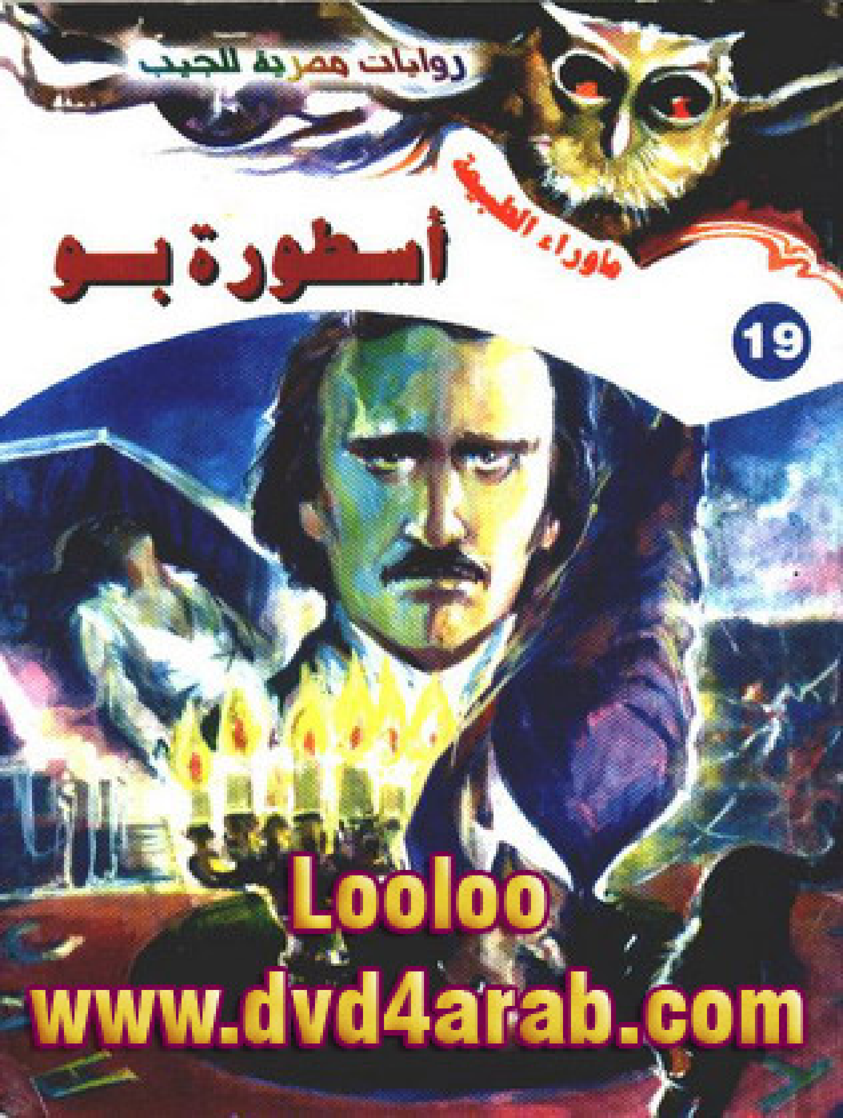


روايات مصرية للجيب
ماوراء الطبيعة
أسطورة بو
19
Looloo
www.dvd4arab.com

مقـــدمـة

إنه أكتوبر ......

الشهر الذى حُرم من دفء الصيف وشاعرية الشتاء ..

الشهر الذى تنتهى فيه أحلام الصيف الزاهية ، بينما آمال الشتاء الغامضة لم تولد بعد .....

الشهر الشبيه بهيكل عظمى يرتدى عباءته السوداء ويرتجف .. لو كان للهياكل العظمية أن ترتجف ..!..

وهأنذا ـ د . (رفعت إسماعيل) ـ أجلس على مكتبى .. جوارى لفافة تبغ لم أشعلها ، لكنى أداعبها بأناملى .. أفركها .. أتشممها .. تلك الطريقة التى يسمونهـــا بـ (التدخين على البارد) ..

جوارى قدح من (الينسون) وهو المشروب الوحيد الذى سمحوا لى بأن أشربه .. تبًا لهم قراصنة الطب !..

ما إن تعطى أحدهم يدك ، حتى يستولى على عنقك وحياتك كلها .. لا تشرب القهوة ولا الشاى .. لا تنم .. لا تصخ .. لاتدخن .. لا تقرأ .. لا تكتب .. لا تعش ..!..

لكنى سأسمح لنفسى بتسلية صغيرة ضاربًا عرض الحائط بكل نصائحهم .. سأجلس إلى مكتبى وأسطر أحداث قصة أخرى من ذكرياتى الرهيبة ..

اليوم أحكى لكم قصتى فى عوالم (إدجار آلان بو) الكابوسية ، وهى مغامرة قصيرة رهيبة مرت بى عام ١٩٦٨ .

وبالمناسبة : هذه القصة ليست حلمًا ولا هلوسة .. أعتقد أن عبقرية ذلك الشاعر الأمريكى كانت شيئًا ملموسًا ، ولقد نجحت فى أن تخلق عالمًا شبه مادى غصت فيه حتى شحمة أذنىّ ..

ستقرءون القصة معى .. ولسوف تفهمون الكثير من الأشياء .. وحين تنتهى أحداثها سأكون هناك ـ كالعادة ـ كى أشرح لكم وجهة نظرى فيما حدث .. وكيف حدث .....

والآن كما يقول (دانتى) .. يا من تدخلون هذا العالم الرهيب ، اتركوا وراءكم كل أمل !.. أنتم الآن فى ضيافة (بو) ..

* * *

إهـــداء

إلى الأستاذ الخالد (إدجار آلان بو) .. الذى رفع قصة الرعب إلى مقام الشعر .. ورفع الشعر إلى منزلة الحلم ، واستخلص من كآبته وجهامة دنياه ذلك الكون السرمدى المصبوغ باللون الأزرق .. إلى (ادجار آلان بو) الذى فهم روعة الفزع ... نهدى هذا الكتيب .

* * *

١ ـ أمريكا من جديد

العام ١٩٦٨ ..

للمرة الثانية تجبرنى أعمالى على العودة إلى الولايات المتحدة ... ولقد زرتها مرة من قبل .. يوم واجهت موضوع الاشتعال الذاتى، وذلك الوغد القديم (شاكال) .. هل تذكرونه ؟

وزرتها مرة غير محسوبة منذ أعوام ـ ربما عام ١٩٦٦ ـ حين اتخذتها محطة انطلاق إلى (جامايكا)، وواجهت (الزومبى) مع صديق لدود هو (هارى شيلدون) ...

هذه المرة أرحل مرة أخرى إلى هذا البلد الذى لا أكن له أى ود مفقود .. والسبب .. حاولت أن أوضح السبب فى الصفحات الأولى من (أسطورة اللهب الأزرق) ..

* * *

إن الحياة فى (أمريكا) أسرع مما ينبغى .. أعقد مما ينبغى .. أعنف مما ينبغى .. وأكثر مادية مما ينبغى .. ثم إننى لم أجد مبررًا يسوغ لى أن أحب بلدًا بذل كل ما يستطيع كى يعين عدوى على هزيمتى ..

كان هذا هو العام ١٩٦٨ .. وهزيمة ١٩٦٧ لم تبرد بعد .. ولم تزل مرارتها فى الحلوق .. ولها فى كل بيت مأساة ..

لهذا ـ أكرر ـ ذهبت إلى هناك مضطرًا ..

وكانت الأعمال التى علىّ أن أتمها ـ والتى لا أرى داعيًا كى أشرحها لك ـ تدور كلها فى (نيويورك) ...

إن (نيويورك) مدينة غير عادية .. ربما كان من المبتذل أن أقول إنها مدينة لا ترحم .. أو أن العاطفة قد ماتت فيها تاركة المجال للمادة .. إلى آخر هذا الهراء الذى يقوله الجميع عن أية مدينة .. لكنها الحقيقة !..

إن (نيويورك) تحوى أسماء لا بأس بها تغرى بالمشاهدة .. (امباير ستيت) .. (برودواى) .. (وول ستريت) .. إلخ .. كل هذه الأسماء التى تسمعها منذ نعومة أظفارك وتتمنى أن تراها .. لكنى أنصحك أن تكون أكثر حذرًا ..

ولو أنك جرؤت على السير فى الطرقات بعد العاشرة مساءً .. وصادفت عصابة من الزنوج المسلحين بالمدى وإذا طلع الصباح عليك وأنت مهشم الأوصال مجدوع الأنف .. عندئذ لا تقل إننى لم أنذرك !..

وإذا مشيت فى زقاق جانبى وفوجئت بتاجر (هيروين) يقوم بتوزيع السمّ على بعض الأوغاد .. وإذا ضايقه أن يراك .. عندئذ لا تلومن إلا نفسك .

وإذا ركبت إحدى سيارات التاكسى الصفراء المجنونة ـ يسمونها هنا (كاب) ـ ووجدت سائقها يقتحم بها رتلًا من السيارات لتتهشم كل عظمة من عظامك .. عندئذ تعرف أنك كنت مخطئًا حين ظننتها الجنة ..

فإذا جاء الليل ومررت وحدك بين أضواء المحلات الساطعة المنعكسة على زجاج منظارك .. ورأيت الغوانى يقفن على أبواب متاجر كتب عليها (سكس شوب) وهن ينادينك : «هى ميسترا» .. وشعرت بالحيرة والضياع فى عالم غريب مقزز .. عندئذ لا تقل إننى لم أخبرك بما ينتظرك ...

* * *

نعم .. (نيويورك) ليست هى الجنة ...

ربما بدت كذلك لشخص غيرى .. أما أنا .. فأقصى ما أبتغيه هو مكان هادئ تُعزف فيه الموسيقا .. وصديق باسم أعرف أنه يحبنى حقًا .. وأناس يتحدثون برقة وصوت خفيض ..

قلت هذا الرأى لصديقى ـ على الطريقة الأمريكية ـ (جيرى كلاين) فلم يرق له كثيرًا ..

محام شاب هو .. أنيق .. وسيم يعشق بلده بعنف .. ويتصور أن من واجبى أن أشعر بالسعادة فى مدينته وإلا كان هذا نوعًا من الكفر بنعمة الله ..

وهكذا اتفقنا على أن يرينى ما يعتقد أننى لن أقاومه فى هذا البلد ، نسيت إن أقول إن أعمالنا كانت مترابطة جدًا ، لهذا لم يفعل ما فعله من أجل سواد عينى .. ولكن فعله بداعى المصلحة .. أو كما يقول الأمريكان : (البراجماتية) ..

أخذنى إلى مطاعم لا بأس بها .. وشوارع لم أتصور وجودها .. وملاهى (برودواى) المبهرة ..

قلت له بعد هذا كله :

ـ (جيرى) .. أنا لم أزعم لحظة أنكم لا تمتلكون التقدم والمال والابهار .. لكنكم تفتقرون إلى الروح الإنسانية .. إن (أمريكا) شبيهة بصناعة السينما فى (هوليوود) .. جميلة مبهرة لكنها بلا تاريخ ولا عمق حضارى .. إن فن السينما عمره لم يتعد قرنًا ، بينما المسرح عمره عشرات القرون .. لكن السينما أكثر جاذبية من المسرح .

قال لى .. وهو يفرغ علبة البيرة التى كان يجرعها فى حلقه ثم يهشم العلبة بقبضته ..

ـ أنا لا أفهم ما تريد قوله .. لكنى على كل حال أستطيع أن أريك تراثًا إنسانيًا لا بأس به ..

والتمعت عيناه الزرقاوان خلف زجاج منظاره :

ـ سنذهب إلى (جران كونكورس) !

* * *

فيما بعد عرفت أن (جران كونكورس) يحوى الكوخ الذى عاش فيه شاعر أمريكا العظيم (إدجار آلان بو) مع زوجته منذ ما ينيف عن القرن ...

لقد اشترت الولاية تلك الكوخ، وجعلت منه مزارًا سياحيًا لكل من عشقوا شعر (بو) وقصص (بو) ...

وكنت أنا بطبيعة الحال قارئًا نهمًا لكل ما جادت به قريحة ذلك العبقرى .. قرأته بالعربية أولًا فى سنى صباى بالمنصورة .. ثم قرأته بالإنجليزية - والقاموس جوارى - فى أعوام دراستى للطب ..

كان (بو) يملك - وهذا رأيى الخاص - تلك العبقرية المريضة المشئومة التى تلد أشنع الرؤى القاتمة على الورق .. لكنك لا تستطيع إلا أن تصفها بأنها عبقرية ..

رأيت ذات مرة رسومًا رهيبة بيد مريض (شيزوفرنيا) موهوب .. وإن أنس فلن أنسى القشعريرة التى أرسلتها فى عمودى الفقرى تلك العوالم المشئومة القاتمة بسمائها القرمزية وبحارها الدموية .. وشخصياتها الشبيهة بعناكب حائرة فى نسيج قدرى مخيف .. لقد كان المريض يرينا قطعة من ذاته .. يرينا العالم الداخلى المريع الذى يحيا فيه ويتعذب به ..

وفى قصص (بو) كنت أشعر بذات القشعريرة .. هذه هى العوالم الرهيبة التى يحيا بها الرجل ليله ونهاره .. أى عذاب وأى ألم !..

* * *

كانت العمائر الحديثة تحيط بالكوخ ..

لقد زحفت المدينة على المكان الذى كان جنة أحلام هذا الشاعر العظيم، ولو أنصفوا لتركوا المكان كما أحبه وكما أراده .. لكن يكفيهم أنهم لم يزيلوا الكوخ كله ليبنوا موضعه (سوبر ماركت) ..

دخلت مع (جيرى) نتأمل الجدران المتآكلة ..

ثمة لافتة موضوعة على مدخل الكوخ تقول :

- « إدجار آلان بو » .
- ولد عام ١٨٠٩ فى (بوسطون) ..
- مات أبواه فى طفولته فتولى رعايته تاجر من (فرجينيا) قام بتعليمه حتى دخل الجامعة، ثم كف عن الإنفاق عليه .
- فى عام ١٨٢٧ عاد إلى (بوسطون) وبدأ ينشر أشعارًا لم تحظ بنجاح .
- تزوج من ابنة عمته والتحق بالكلية الحربية .
- توفيت زوجته عام ١٨٤٧ فكانت الضربة القاصمة له، وانغمس فى شرب الخمر .

● عام ١٨٤٩ وجد فى أحد شوارع (بالتيمور) ميتًا .

لقد عاش (إدجار آلان بو) أربعين عامًا قدم خلالها للعالم قصائد وقصصًا لا تنسى . وكانت عبقريته التى تمكنت من مزج الرعب بالشاعرية هى التى جعلت لأدبه مذاقًا خاصًا لدى الناطقين بالانجليزية وقارئيها ..

انتهت الكلمات المكتوبة على اللافتة .....

إنها لم تخبرنى بشىء عن هذا العبقرى ، هكذا تبدو أية لوحة من بعيد .. ربما مبهرة .. ربما قبيحة .. لكنك لا تجرؤ على الزعم بأنك رأيتها إلا حين تدنو منها وتدقق النظر فى كل خدش وكل ضربة فرشاة ..

ماذا سيقولون عنى حين أموت ؟.. د . (رفعت إسماعيل) راهب العلم الذى لم يتزوج من أجل دراسة أمراض الدم .. له أسفار عديدة وصداقات كثيرة فى الوسط العلمى ، وله تأملات خاصة فى (الميتافيزيقا) .. هذا هو كل شىء ..

ولكن أين حقيقتى ؟.. أين معاناتى العاطفية ؟.. مشاكلى مع التدخين ؟.. مخاوفى وإحباطاتى ؟.. لحظات نصرى ولحظات هزيمتى .. كل هذا لن يعرفه أحد سوى من دنا منى إلى مسافة سنتيمترات وسمع سعالى ليلًا .. وأصغى لصوت اصطكاك أسنانى بردًا .. وخاض معى مغامرة اختيار ربطة عنق قبل أن أقابل خطيبتى ..

هنا عاش (إدجار آلان بو) وهنا ماتت حبيبته .. زوجته صغيرة السن الرقيقة كزهرة .. الحالمة كفراشة ..

* * *

كان يحبها كثيرًا ..

وبرغم مرضها بالسلّ فإنه لم يستطع أن يوفر لها ما يقيم اودها من الطعام .. لم يكن يملك لها سوى الحبّ ..

على هذا الفراش كانت ترقد وترتجف ، لا يكاد ما عليها من ثياب أن يسترها ، فى حين يجلس هو عند قدميها يدلكهما .. ويتحايل على القط كى يقنعه بالرقاد فوق قدميها الحبيبتين ..

وحين ماتت .. كاد يعجز عن دفنها لولا أن تبرع الجيران بدفع نفقات التكفين والدفن ..

لقد ماتت فى (يناير) .. شهر مولده .. وحين جاء الربيع بروائح الكرز وعبير البنفسج ، وابتسم البدر فوق قمم الأشجار ؛ استبد به الحنين إليها فكتب أروع قصيدة فى الأدب الأمريكى .. وأروع قصيدة قالها شاعر فى زوجته عمومًا :

كان هذا منذ أعوام طوال .. طوال ..

فى مملكة بقرب البحر ..

عاشت عذراء بتول لك أن تدعوها ..



على هذا الفراش كانت ترقد وترتجف ، لايكاد ما عليها من ثياب أن يسترها فى حين يجلس هو عند قدميها يدلكهما ..

باسم :(أنا بيل لى) ...
عاشت تلكم البتول ولا غرض لها فى الحياة .
إلا أن تهوانى .. وأن أهواها ....

طفلة كانت .. وطفلًا كنت ..
فى تلك المملكة بجوار البحر ..
إلا أننا عرفنا الحب الذى هو أقوى من الحب ذاته
أنا وحبيبتى (أنا بيل لى) ..
حبًا أثار حسد الملائكة ذوات الأجنحة علينا ..

وفى ليلة ـ منذ زمن سحيق ـ فى تلك المملكة بجوار البحر ..
هبت الريح من غمامة ..
فاقشعرت حبيبتى (أنا بيل لى) ..
وأتى من يحملونها بعيدًا عنى ..
ليسجنوها فى ضريح ..
فى تلك المملكة بجوار البحر ..

لكن حبنا كان أقوى ..
من حبِ كل من فاقونا عمرًا ..

من كل من فاقونا حكمة ..
ولن تقدر الشياطين فى أعماق المحيط ولا فى طيات السحاب أن تفصل روحى عن روح ..
(أنا بيل لى) ..

لا يسطع ضياء القمر إلا ويجلب لى الأحلام ..
عن (أنا بيل لى) الجميلة ..
ولا تلتمع النجوم إلا وأرى فيها ..
عينى (أنابيل لى) الجميلة ..
ولهذا أقضى الليالى مسهدًا .
وأرقد جوار عزيزتى .. حياتى .. عروسى ..
فى ضريحها بجوار البحر ..
فى قبرها بجوار البحر ....!

★ ★ ★

كنت شاردًا فى هذه الخواطر حين شعرت بيد (جيرى) تجذب كمى .. أن أنتبه لشىء مريب ..
كان هناك رجل قصير القامة أصلع الرأس يقف على بعد خطوات منا .. وكان يرمقنى بذلك الفضول المزعج الذى يوحى بحقه الإلهى فى التدخل فيما لا يعنيه ..

نظرت له فى حنق ، وأدرت ظهرى كى لا أراه .. ثم اختلست نظرة أخرى للوراء فوجدته يحدجنى بذات الثبات .
كان يرتدى معطفًا خاكيًا حال لونه ، وفى فمه لفافة تبغ مطفأة .. وفى عينيه رقة ومودة لا أنكرهما ..
وفى اللحظة التالية دنا منا ..
لقد تجاوز الفضول حدوده ليدخل فى نطاق التدخل السافر .. أنا لا أحب هذا ..
وحين فتح فاه ليتكلم كان ما قاله هو آخر شىء مخبول توقعته فى حياتى ..
قال وهو يطرف بكلتا عينيه :
ـ مستر (بو) ..!.. أخيرًا قد عدت !

★ ★ ★

٢ ـ حكاية لا تصدق

ـ اسمى هو (رفعت) .. (رفعت إسماعيل) .

ـ لا يهم ..!.. النتيجة واحدة وهى أن العبقرى (إدجار آلان بو) قد عاد إلى عالمنا فى صورة جديدة .

نظرت مستغيثًا بـ (جيرى) فغمز بعينه اليسرى فى إشارة واضحة أن هذا الرجل معتوه .. فجاره ولينته الأمر ..

قلت للرجل فى تواضع :

ـ إنها ليست معجزة إلى الحدّ الذى تظنه .

وحاولت مغادرة المُتحف مع (جيرى) لكن الرجل كان لزجًا كذبابة .. سار خلفنا مطاردًا وهو لا يكف عن الثرثرة :

ـ اسمى هو (سام كولبى) .. خبير فى الروحانيات .. هيه !.. لا تسرعا هكذا !.. إن ساقىّ القصيرتين لعاجزتان عن اللحاق بساقيكما .. أنت تعرف شعورى يا سيد .. ريفام .... حين ....

قلت له فى سماجة لا تضارع ، وأنا أحاول إشعال لفافة تبغ لولا أن لمحت (زغرة) فى عين حارس الأمن تقول لى : إن خراب بيتى رهن بهذه الحركة ..

ـ اسمى (رفعت) .

ـ ليكن .. أنت تعرف شعورى يا سيد (رفعت) حين أدخل إلى هذا الكوخ بحثًا عن (الاكتوبلازم) السخىّ الذى تركه المرحوم (بو) فى كل ركن وفوق كل قطعة أثاث .. إن روح (بو) لعالقة بهذا المكان كما تعلق رائحة الظربان بقفصه .

ـ تشبيه شاعرى !.

شكرًا لك .. وفجأة برزت لى أنت من حيث لا أدرى .. ولمحت عينيك وقامتك .. وشممت رائحتك أنت تشع ذات هالة (الاكتوبلازم) التى غمر بها (بو) هذا المكان .. بعبارة أخرى أنت هو (بو) وقد عاد إلى عالمنا » .

عبثت فى جيوبى حتى وجدت ستة بنسات ، وبكل حنكة مددت يدى فدسستها فى كف هذا الرجل .. أعتقد أنه بحاجة إلى (إكرامية) حتى يرحل ويريح أذنى العجوز من هذا الهراء ..

وهرعت و (جيرى) إلى الباب .. سمعت (جيرى) يهتف :

ـ لماذا أهنته ؟.. لم يكن متسولاً قط .

قلت له وأنا أشعل لفافة التبغ :

- لم أرد إهانته .. لكنه يستحق ذلك إذا كان يرى أننى و (إنجار آلان بو) نترك رائحة الظربان فى الأماكن التى ندخلها ..!..

- لم يقل ذلك .. إنه ......

وهنا سمعت الرجل يصرخ وهو يهرع وراءنا .. كان غاضبًا كخرتيت لدغته ذبابة فى جفنه .. غضبه لم أر مثلها من قبل .. وأشهد أن احمرار وجهه وعينيه واللعاب المتساقط من فيه تكفلوا بإثارة الهلع فى قلبى .. كأننى كنت فى بلد أجنبى وارتكبت خطأ قانونيًا جسيمًا دون علم، وهو ذا رجل الشرطة ينفجر فى ..

- أنت أيها الـ (.....) .. تحاول إعطائى صدقة ؟!.. أيها الـ (....) يا (....) يا (....) !.. أنا القادر على شراء ألف من عينتك لو بعت قلامة أظفارى !!.

كانت شتائمه تعكس قدرة لغوية مذهلة، وعلمًا واسعًا وتربية طويلة فى أزقة (بروكلين) إذا لم يخب حدسى ..

حاولت تهدئته بكل الوسائل .. لكن غضبه كان نوعًا من الإعصار الذى لاتجدى معه أية وسيلة سوى تركه حتى يهدأ ...

* * *

قال (كولبى) وهو يقلب مشروب الشيكولاته الساخنة :

- الواقع أننى أسأت فهمك يا د . (رفعت) .. أنت رجل طيب .

كنا جالسين فى ذلك المقهى الصغير الذى اخترناه ليكون المكان الذى نعقد فيه اتفاق الصلح ..

تأملته للمرة الرابعة .. كان دقيق الملامح والأطراف كأنه دمية أطفال .. جميلة ودود، لكن شيئًا ما فى ابتسامتها لايريحك تمامًا .. تعرفون بالطبع هذا الطراز من البشر اللطيف أكثر من اللازم لكنك لا تستطيع أن تمنحه مودتك كاملة ..

ولا يفوتك أن تلاحظ - إذا ما حولت نظرك إليه فجأة - أنه يرمقك فى ثبات بعين لا تطرف ..!..

قال لى وهو يرشف المشروب الساخن (الذى عرفت أنه لايشرب سواه، مما أكد انطباع الطفولة فى ذهنى) :

- هل تؤمن بتناسخ الأرواح ؟

- لا ....

- إذن لا تؤمن بإمكانية كونك عشت من قبل حياة سابقة ربما كـ (إنجار آلان بو) مثلا ؟

قمت بنزع منظارى لتلميع زجاجه وقلت :

- إننى مسلم يا مستر (كولبى) وتناسخ الأرواح يتعارض مع ديانتى .. وحتى لو لم يكن يتعارض معها فإن قانون الصدفة يقول إنه من العسير أن أكون أنا بالذات - بين كل سكان الأرض - تجسيد روح كاتبكم العبقرى .. أعترف أننى شخص منحوس، لكن ليس إلى هذا الحد المروّع .

مال برأسه نحوى .. ثمة شارب بنى على شفته العليا من الشيكولاته .. واتسعت عيناه :

- لقد راقبتك وأنت تتفحص الكوخ .. راقبتك بعناية، ورأيت الانبهار والذهول على محياك .. كنت تشعر بشىء ما .. كنت تشعر بأنك عشت هذه التجربة من قبل .. رأيت هذا الكوخ من قبل .. و .....

ثم نهض فى عصبية .. وقال معتذرًا :

- معذرة .. أريد الذهاب للحمام .. إنها (البروستاتا) كما تعلمون فى سنى !

وهرع يسأل النادلين عن مكان دورة المياه ..

- غريب الأطوار لكنه مسل .

قالها (جيرى) وهو يضيف بعض السكر لقدح الشاى .. فقلت وأنا أتأمل الرجل :

- ليس مخبولاً على الإطلاق .

- إن قومه لا يتمتعون بأدنى قدر من البراءة .

- قومه ؟! .

رشف (جيرى) جرعة من الشاى وغمغم :

- طبعًا .. اليهود !.. ألا تعرف معنى أن يكون اسم الشخص (سام) ؟!..

يهودى ؟.. لست معاديًا للسامية أبدًا .. أنا أكره الصهيونية لكنى لا أحمل ضغائن لليهودية .. ولكن ما سرّ هذا التوتر فى أعصابى والجفاف فى حلقى ..؟.. بالطبع لم أظهر هذا لـ (جيرى) . وأشعلت لفافة تبغ وشرعت أسعل على سبيل التسلية ..

بعد دقائق عاد (كولبى) من الحمام .. كان قد نسى أزرار سرواله مفتوحة ويلل معطفه بمياه الصنبور .. رجل بائس مشعث لا يوحى بالخطر بل بالبلاهة و (الدهولة) ..

قال وهو يجذب مقعده ليجلس جوارى :

- مازلت تنكر أنك شعرت بما شعرت به ؟.. حسن !..

أنا قادر على أن أثبت لك صدق كلامى وفراستى .. اسمعا !.. إن دارى قريبة من هنا .. ولسوف أدعوكما إلى تجربة فريدة من نوعها .

- وما هى ؟..

- ستريان لو قبلتما .



ضيقة جدًا دار (كولبى) .. تتكون من حجرتين وصالة مليئة بقصاصات ممزقة وخرق مبعثرة هنا وهناك ..

تبادلت و (جيرى) النظر .. كان الملل يخنقنا فى هذا النهار اللعين ، وما كانت لدينا وسيلة لإمضاء الأمسية .. لم لانذهب لنرى ما يريد هذا المعتوه ؟.. هو غير قادر بالتأكيد على إيذائنا نحن الاثنين .. ومن الممكن أن نتعلم من ورائه خبرة جديدة ..

وكما قلت لكم ـ وسأقول دومًا ـ كنت ساذجًا .. ساذجًا .. ولم أعرف هذا إلا بعد صفحتين أو ثلاث !

★ ★ ★

ضيقة جدًا دار (كولبى) .. تتكون من حجرتين وصالة مليئة بقصاصات ممزقة وخرق مبعثرة هنا وهناك ، ثمة غرفة نوم مغلقة وغرفة جلوس بها مائدة مستديرة يعلوها ذلك الشمعدان السداسى اليهودى الشهير .. وعلى الحائط لوحة كبيرة تمثل قرص (زودياك) الخاص بالتنجيم .. وعدة برطمانات ملأى ببلورات زرقاء مخضرة ..

ثم مكتبة بها عدة مجلدات سميكة مهترئة .. وحوض أسماك زينة به سمكتان بشعتا المنظر .. وكان الجو يعبق برائحة بخور مقيتة زيتية تخنق الأنفاس ..

قرب (جيرى) فمه من أذنى وهمس :

ـ لا أحب هذا المكان .. (رفعت) .. هذا الرجل يمارس السحر الأسود وأقسم على هذا !

الواقع أننى ـ أنا الآخر ـ شعرت بهذا .. وتذكرت شقة الأم (مارشا) ساحرة (الفودو) فى (جامايكا) يوم جلست أمامها لتقرأ لى أوراق (التاروت) ..

لكن ماذا بيدى عمله ؟.. هل نهرب ؟.. إن الرجل ـ حتى هذه اللحظة ـ كان نموذجًا للكرم واللطف .. قدم لنا قدحين من مشروب الشيكولاته الساخن ـ عليه اللعنة ـ وسمح لى بالتدخين، بل وأدار على الجراموفون أسطوانة عتيقة لـ (باخ) ..

ثم نهض وأحضر بعض البرطمانات .. أراها لى بما تحويه من بلورات خضراء مزرقة شبيهة بالشبّ .. قال لى:

ـ هل ترى ؟.. هذا هو (إكتوبلازم) عدد من الأرواح التى قمت بتحضيرها !

تساءل (جيرى) فى توجس وهو يتأمل البلورات :

ـ هل تعنى أن الأرواح تركت لك هذا ؟..

ـ إن للأرواح القدرة على إعطاء تجسيد مادى معين غالبًا ما يأخذ شكل بلورات .. وهذا هو ما نسميه (جبلة خارجية) أو (إكتوبلازم) .. هذا شيء معروف .. و ....

ثم نهض ملهوفًا .. وهرع إلى الحمام مرددًا عذره لأن ..

ـ نعم .. نعم .. إنها (البروستاتا) .. لا عليك يا صديقى !

وجلست ـ أنا و (جيرى) ـ نتأمل البرطمانات .. كانت هناك وريقة ملصقة على كل واحد منها ، وقد خُطّ عليها اسم معين : أدولف هتلر .. إيزادورا دنكان .. تيمور لنك .. نورما جين بيكر .. إدجار آلان بو .. يوليوس قيصر ..

تساءلت وأنا أرشف الشيكولاته كارهًا :

ـ لا أعرف هذه الـ (نورما جين بيكر) .

قال (جيرى) في خبث :

ـ إنه الاسم الأصلى لـ (مارلين مونرو) .. إن هذا اليهودى ليس محرومًا تمامًا من تذوق الجمال !

ـ فهمت .. إن عالم الأرواح لا يعترف بأسماء الشهرة .

وهنا عاد الرجل ...

قال لنا وهو يغلق أزرار سرواله هذه المرة :

ـ الآن يمكننا البدء .. ولتكون الصورة واضحة أمامكما سنحاول استحضار روح (إدجار آلان بو) وسؤالها عن د . (رفعت إسماعيل) .. سيجيبنا الرجل بالخبر اليقين .

قلت فى نفاد صبر وأنا أعيد البرطمانات إلى الرف :

ـ مادمت تزعم أن روحه هى روحى فأنت لن تجد شيئًا .

- هذا ما أتوقعه .

- آها !.. لقد بدأت تتراجع !.. إذا لم يحدث شيء ستعتبر هذا دليلاً على صدق كلامك ..!.. وكلانا يعرف أنه لن يحدث شيء .

نظر لى تلك النظرة التى تفزعنى .. وقال ضاغطًا على حروف كلماته :

- د . (رفعت) .. أرجوك ألا تكون واثقًا إلى هذا الحد .

- إن المنطق هو ما يتكلم .. ولا دخل للثقة هنا .

تناول بين سبابته وإبهامه حفنة من طعام الأسماك القشرى ، وبعثرها فوق سطح الماء .. السمكتان ترتفعان للسطح تعبان ما أمكنهما عبّه من هذه القشور .. قال لى وقد أولانى ظهره :

- لو أن روح (إدجار آلان بو) استجابت لنا فأنا مخطئ ولا خطر عليك .. أما لو كانت هى بعينها روحك فإننى لا أضمن النتائج .. لربما هلكت أنت فى الحال .. ولربما غبت إلى الأبد فى عالم الأثير حيث لا تدرى إن كنت (رفعت) أم (بـو) !

ثم استدار لى وجفف أنامله فى معطفه :

- إننى سأعتبر انسحابك اعترافًا منك بصدق كلامى.. فهل تنسحب يا دكتور (رفعت) ؟!

* * *

٣ ـ تجربة خطرة ...

ولماذا أنسحب ؟..

أعرف جيدًا أن شيئًا لن يحدث ، سيقول هذا المعتوه كلامًا كثيرًا ويدارى عينيه بكفه ويهتز .. وبعد عشر دقائق سيقول لى إن روح (إدجار آلان بو) غير موجودة ، وأن هذا دليل كاف على أنها تجسدت فى شخصى ..

هذا هو ما سيحدث بالضبط ، فلم لا ألعب دور الشجاع الواثق من ذاته ولو مرة ؟.. أنا لم ألعب هذا الدور منذ قبلت تشريح مومياء (أخيروم) كى لا أبدو رعديدًا أمام رجال هيئة الآثار ..

أنا لن أنسحب يا (كولبى) ..

هلم ألعب لعبتك ..

* * *

فرك يديه فى شغف ، وقال وهو ينظر فى عينىّ بثبات :

- ليكن يا د . (رفعت) .. ولكن لنتفق على شيء .. أنا لا أفعل ، ما أفعله دون مقابل .

تصاعد الدم إلى رأسى :

ـ ولماذا كانت ملحمة الشرف التى أتحفتنى بها حين .....؟

ـ لم أتحدث عن مال .. ـ قالها رافعًا كفه فى كبرياء ـ فالعلم لا يقدر بثمن .. ما أريده هو إثبات رسمى منك يقر بأن التجربة صحيحة .. وهذا الإقرار سينشر فى مجلة (ويزارد)(*) وهى مجلة توزع على نطاق محدود فى وسط المهتمين بالروحانيات .. إن التصديق هو ما أريده .

قال (جيرى) وهو يرسم على وجهه أمارات الاستمتاع بما يحدث :

ـ وكيف له أن يعرف أن التجربة صحيحة إذا لم يحدث شىء ؟

قال الرجل فى صبر :

ـ أنا واثق بأنه سيعرف ذلك .

ثم توتر وجهه وهتف :

ـ معذرة !.. الحمام ..!.. إنها (البروستاتا) كما تعلمون .

ـ إنها لحالة متقدمة بالفعل يا صديقى .

(*) الساحر بالإنجليزية .

فما إن تركنا اليهودى حتى مال (جيرى) على أذنى هامسًا فى جدية :

ـ هل حقًا تنوى المرور بهذه المهزلة ؟

تثاءبت وقلت :

ـ إن الحياة هى حشد من الخبرات السارة وغير السارة .. وأنا أهوى جمع الخبرات كما يجمع غيرى العملات أو أغطية زجاجات المياه الغازية .. ويومًا ما سأحكى لرفاقى تجربتى مع تحضير الأرواح ، ولسوف يهزون رءوسهم فى شغف قائلين : كم من خبرات غريبة عاشها هذا العجوز ..!

ـ وتكتب له هذا الإقرار ؟

ـ لم لا ؟.. إنه يسعى إلى الشهرة والدعاية .. لم أر فى حياتى طبيبًا يمتنع عن تعليق عبارات الشكر التى يكتبها له المرضى فى عيادته .

ثم أردفت :

ـ على كل حال أنا واثق من أننى لن أشعر بشىء .. وستكون كتابة ذلك الإقرار غير ذات موضوع .

هز (جيرى) رأسه وفك رباط عنقه الأنيق طلبًا للاسترخاء :

ـ الواقع يا (رفعت) أننى لم أعد واثقًا أيكما أكثر خبالًا .

* * *

منذ الطفولة لم أكن كالآخرين ..
لم أر ما رآه الآخرون ..
ولم أستطع أن آتى بالأحلام من الربيع الذى عرفه الآخرون ..
لم أجد فيه أحزانى .. ولا أفراحى ...
وكل ما عشقت فى حياتى ..
عشقته وحدى ..

(إدجار آلان بو)

* * *

فخورًا بنفسه، متحمسًا عاد لنا (سام كولبى) .. كان قد وضع أسطوانة جديدة لـ (باخ) .. وأشعل بعضًا من ذلك البخور المرعب لإضفاء جو النصب الذى أراده ..

وقف فى وسط الغرفة، وأشار إلى سلة عتيقة فوق أحد الرفوف :

- هل تفضلان أسلوب السلّة ؟

أشعلت لفافة تبغ .. أعترف أننى كنت قد بدأت أتوتّر .. وقلت :

- أفضل أسلوبًا أكثر حداثة .

- إذن .. ليكن أسلوب المائدة .. ليس لدينا وسطاء للأسف لهذا سنلجأ إلى هذا الأسلوب .

وأشار لكل منا كى نجلس إلى المائدة، وانتزع الشمعدان السداسى والمفرش فوجدت أن الحروف الأبجدية كلها مسطرة على محيط المائدة الخارجى .. أنا أعرف هذه الطريقة من قراءاتى .. سيحتاج الأمر إلى كوب كذلك على ما أظن ..

لكن (التكنولوجيا) الأمريكية لم تترك شيئًا لم تطوره .. أحضر لنا الرجل أداة تتحرك على ثلاث عجلات هى أقرب إلى مكواة حديدية - ولها ذات الحجم - لكن لها ثلاثة مقابض، وكان طرفها المدبب هو المؤشر الذى سيشير إلى الحروف تباعًا ..

- أرجو ألا ينفجر هذا الشىء فى وجوهنا .

- صه ! .

ونهض (كولبى) فأضاء ضوءًا أحمر كريهًا خانقًا ثم أطفأ ضوء الغرفة .. و ....

* * *

كنت فى السابعة من عمرى حين أطفأ أحدهم النور ..

صحوت لأرى الضوء الأحمر الرهيب يغمر المكان ..

خلتنى قد متُّ وذهبت إلى الجحيم حيث تمرح الشياطين حولى .. صرخت .. صرخت ..

ثم شعرت بكف خالى الباردة تربّت على ذراعى :



أحضر لنا الرجل أداة تتحرك على ثلاث عجلات هى أقرب إلى مكواة حديدية !..

- لا تخف يا (رفعت) !.. إنها إضاءة مصباح (الكيروسين) .. لقد تعطل التيار الكهربائى وأنت نائم يا بنى ..!

لكننى كنت أنشج وأرتجف ..

ولا أذكر متى نمت ثانية ...

★ ★ ★

لن يجىء خالى هذه المرة .. لأننى رجل كبير ناضج أمارس - بملء إرادتى - تجربة رهيبة فى (نيويورك) ..

ها هو ذا (كولبى) يعود فى تؤدة ليجلس إلى المائدة .. يبدو لى أكثر شيطانية فى الضوء الأحمر الرهيب ..

قال وهو يمسك أحد المقابض الثلاثة :

- من الآن لن يكون هناك مزاح .. فليبتلع كل منكما لسانه وتعليقاته الساخرة .

كانت شخصيته تتبلور أكثر فأكثر لتتحول إلى قوة كاسحة لا تجرؤ على معارضتها ، وأعتقد أن شخصية كهذه كانت قادرة على الإيحاء بأى شىء لكل من يجلس معها فى هذا الجو المسموم ..

إن النصب يحتاج إلى شخصية قوية حقًا عميقة التأثير ..

- ليمسك كل منكما بمقبض .

فأمسكنا ......

- ستشعران (بالكاشف) يتحرك .. لا تقاوماه .. اتركاه
يذهب إلى حيث يريد .. وستكون الإجابة على أسئلتنا هى
ما ينجم عن الحروف .. تذكرا لا أسئلة سوى ما أسأله أنا ..
لا نريد خلطًا .
- ولكن عندى بعض الأسئـ... .
- صه !.. لقد أغلق باب المناقشة وإبداء الآراء .. إن
الدكتاتورية هى اسم اللعبة يا سادة من الآن فصاعدًا».
ابتلعت ريقى بصوت مسموع ...
بدأ الرجل يتلو عبارات ما بصوت خفيض ، لابد أنها
نوع من الاستنجاد بالشياطين أو شىء من هذا القبيل .
ثم تبينت كلمة (إدجار بو) فى كلامه ..
وهنا خطر لى خاطر .. لابد أنه قام باستحضار روح
المذكور بنجاح من قبل - بدليل (الإكتوبلازم) فى
البرطمان - وهذا يعنى أنه مخطئ فى كلامه .. هو يعرف
أنه مخطئ .. فما جدوى هذا الذى يحدث إلا إذا كان يدرك
جيدًا أنه نصاب ؟..
ابتلعت خواطرى وواصلت تلك التجربة ..

★ ★ ★

كم هو زلق هذا (الكاشف) !...
بصعوبة شديدة تستطيع أن تثبت قبضتك عليه دون أن
تدفعه ..

وسمعت صوت (كولبى) يتساءل :
- (إدجار آلان بو) .. هل أنت معنا ؟.
ساد الصمت لحظات .. صوت أنفاسنا ودقات قلوبنا ..
ثم شعرت بالكاشف ينزلق .. ببطء نحو محيط
المائدة ..
تحرك أولًا نحو (النون) .. ثم (العين) .. ثم (الميم) ..
نـ - عـ - م ...!
رفعت عينى نحو (جيرى) وقالت نظرتى ما لم أستطع
قوله ..
إن واحدًا منا فقط يمارس دورًا إيجابيًا فى التحريك ،
فى حين يظن الآخران أن الكاشف يتحرك تلقائيًا ..
إنها حيلة سهلة ومن الصعب كشفها ..

★ ★ ★

سأل (كولبى) بصوت درامى :
- هل تسمعنى جيدًا يا مستر (بو) ؟.
- ن - ع - م ..!
- هل تستطيع تعرّف أحد من الموجودين ؟.
ببطء تحرك الكاشف .. طرفه المدبب يشير إلىّ ..
ثم شرع يتحرك نحو حرف (الراء) .. ثم رسم قوسًا
طويلًا قاصدًا (الفاء) ..

ر ـ ف ـ ع ـ ت ، إ ـ س ـ م ـ ا ـ ع ـ ى ـ ل ،
مـ ـ صـ ـ ر ـ ى ، يـ ـ ع ـ م ـ ل ، طـ ـ بـ ـ يـ ـ بـ ـ ا ....!

ـ ولماذا عرفته دون سواه ؟!.

تحرك الكاشف ببطء .. ببطء نحو حرف اللام ..

« لـ ـ أ ـ نـ ـ ـه ـ أ ـ نـ ـ يـ ـ ا ..! ».

جففت بيدى اليسرى قطرات العرق التى نبتت على جبينى .. سيسهل علىّ فضح الخدعة لو أن (كولبى) نزع يده من مقبضه ..

يصعب علىّ أن أدعوه إلى ذلك الآن لكنى سأدبره ..

ـ وكيف يكون أنت بينما أنت معنا هنا ؟.

ساد الصمت هنيهة ..

هذا النوع من الأسئلة صعب حتى على الأرواح (لم أشك لحظة فى أن هذه خدعة سخيفة من (كولبى) .. بماذا سيجيب يا ترى ؟..

وبعد هذه الهنيهة عاد الكاشف يتحرك :

أ ـ و ـ قـ ـ ف ، ا ـ ل ـ ت ـ جـ ـ ر ـ بـ ـ ة ، حـ ـ ا ـ لـ
ـ ا ، و ـ ا ـ ل ـ ا ، ح ـ د ـ ث ، مـ ـ ا ـ ل ـ ا ، ت ـ ح ـ مـ
د ، عـ ـ قـ ـ بـ ـ ا ـ ه !.

ـ ماذا تعنى ؟.. ولماذا لا تجيب على سؤالى ؟.

ـ إ ـ ن ، ر ـ و ـ حـ ـ يـ ـ نـ ـ ا ، و ـ ا ـ ح ـ د ـ ة ،
و ـ م ـ ع ـ نـ ـ ى ، هـ ـ ذ ـ ا ، أ ـ نـ ـ ك ، تـ ـ سـ ـ ل ـ بـ
ـ هـ ، ج ـ ز ـ ء ـ ا ، م ـ ن ، ذ ـ ا ـ تـ ـ هـ ، أ ـ ل ـ ا ـ ن !.

للمرة الأولى تكلمت ..

ـ ما معنى هذا الهراء يا (كولبى) ؟.. لقد طالت الدعابة .. طا ....

نظر لى (كولبى) نظرة صارمة .. وضمّ شفتيه :

ـ شششش !..

ـ ثم نظر إلى الكاشف وهتف :

ـ إذن ارحلى يا روح (بو) .. ارحلى !.

تنفست الصعداء .. واستعددت لأواصل الكلام ، لولا أن شعرت بالكاشف يتحرك جارًا قبضتى معه ..

كان يتجه فى سرعة مجنونة إلى حرف (الفاء) ..

ثم فارقها مسرعًا إلى حرف (الألف) .. ثم (التاء) ..

شرع (كولبى) يتمايل فى موضعه محاولاً اللحاق بحركة الكاشف المجنونة .. وحرّك شفتيه لينطق الحروف :

ـ فـ .. ا .. ت الأوان ..!.. إن رحيلى يعنى رحيله معى !.

* * *

ـ فات الأوان !.

قالتها (ماجى) وأنا أودعها فى (أسكتلندا) يوم جاء ميعاد الرحيل ..

كانت لحظة وهن قد انتابتنى بينما القطار يهدر منذرًا بمغادرة المحطة ، وأوشكت على أن أثب بحقائبى عائدًا لها ..

لكنها ـ بإشارة حازمة من يدها ـ منعتنى من ذلك .. كان وثبى من القطار يعنى إضافة جثة ممزقة إلى مشرحة جامعة (داندى) ..

ومن النافذة شرعت أرمقها .. رقيقة .. واهنة .. حانية .. وتبتعد طيلة الوقت ....

* * *

كان (بو) هو الآخر يبتعد ....

وشعرت بكف (كولبى) الباردة تعتصر يدى فى جنون :

ـ لا تستسلم يا (رفعت) !.. حاول ألا تموت !....

لماذا يهزنى هذا المعتوه ؟.. أريد أن أنا ااام !..

ـ (رفعت) ..!.. قاوم الحفرة التى ستغوص فيها .. حاول أن تبقى على السطح !.

النعاس لذيذ بعد عناء الحياة .. لكن لدىّ مواعيد يجب أن أحفظها ، وأميالاً يجب أن أقطعها قبل أن أنام فى الغابة الباردة ..

من قال هذا ؟.. (فروست) ؟.. ربما .. لا داعى للتذكر لأننى سعيد برغم كل شىء ..

سعيد ....

* * *

٤ ـ قناع الموت الأحمر ...

والغراب لم يطر بعد .

ما زال قابعًا فى موضعه فوق تمثال (بالاس) فوق باب غرفتى وعيناه عينا شيطان يحلم ..

بينما ضوء المصباح يرسم ظلّه على الأرض ..

هذا الظلّ الذى لن تفارقه روحى

إلى الأبد ..! » .

(إدجار آلان بو)

* * *

الضوء الأحمر مازال موجودًا لم يبرح المكان بعد ..

لكننى أدركت ـ بعد جهد ـ أن الجدران سوداء تمامًا ..

كان مصدر الضوء الأحمر الدموى هو الزجاج الأحمر المثبت على النوافذ .. وخلف تلكم النوافذ كان اللهب يتأجج باعثًا ذلك الضوء الرهيب على وجوه الواقفين حولى ..

نظرت يمينًا ويسارًا فأدركت أننى فى حفل تنكرى .
رجال يرتدون أقنعة مروعة ونساء يلبسن ثياب الكرنفال ..
كانت الموسيقا تعزف باستمرار .. والحشد يرقص عليها
رقصًا رشيقًا بارعًا ..

وفجأة دوّى صوت غريب أجفل له القوم .. نظرت إلى
ركن القاعة فوجدت ساعة سوداء رهيبة عند الجدار
الغربى .. كانت هى المسئولة عن هذا الصوت الغريب ..

نظرت لساعتى فلم أجدها .. وأدركت أننى ألبس كهؤلاء
القوم .. ثيابًا تمت إلى القرون الوسطى ..

ـ تحية للأمير (بروسبرو) !.

دوت العبارة بالإيطالية لكنى فهمتها ..

أين أنا ؟.. كيف جئت ها هنا ؟.. من هؤلاء ؟..

أنا أعرف جيدًا أن هذا حلم .. بالأحرى هو كابوس ..
لكن كيف أصحو منه ؟.. كيف أنهيه ؟..

خرجت من هذه القاعة الكئيبة أمشى بين الراقصين ..
أدركت أن هناك سبع قاعات .. كل منها لها لونها الخاص
الناجم عن لون الزجاج .. قاعة زرقاء .. خضراء ..
صفراء .. إلخ .

وهنا شعرت بشىء مألوف فى كل هذا ...

ولكننى لم أستطع أن أقسم .. ربما كان هذا ضربًا من
ظاهرة (ديجافو) اللعينة التى تجعل ما لم تره من قبل يبدو
مألوفًا ..

كان الوقت منتصف الليل ..

ولمحت رجلًا يسير بين الراقصين .. رجلًا طويلًا ناحلًا
اختار لنفسه زىّ الكفن .. كان يمشى بين القوم باعثًا الهلع
والاشمئزاز فى قلوبهم ..

وإذ دنا منى لمحت فى ضوء الغرفة الرابعة ـ
الأرجوانى ـ قناعه .. كان قناع مومياء متحللة ، وكان
الكفن الذى يرتديه ملطخًا بالدماء كله ..

أى ذوق فظ دفع هذا المخبول إلى التنكر بهذا
الشكل ؟!..

ولمحت من يدعونه (بروسبرو) محنقًا يشير نحو
الرجل ويقول شيئًا ما لحراسه الذين جردوا سيوفهم ..

وهنا تذكرت .....

إننى وسط قصة (قناع الموت الأحمر) الشهيرة
لـ (إدجار آلان بو) !.. الأمير الذى أراد الفرار من الوباء
فبنى لنفسه وخلصائه قصرًا سامقًا بعيدًا عن الوباء الذى
عمّ البلاد .. الوباء الذى سموه (الموت الأحمر) ..


لحق به الأمير هناك ورفع سيفه ليقتله .. لكنه لم يفعل .. لقد كان الضيف هو الموت الأحمر ذاته ..

ترك الرجل شعبه يتألم وعاش في هذا القصر ـ الذي صهرت أقفاله كي لا تفتح ـ ينعم بحياة الرغد والهناء ..

ثم أعد عدته لهذه الحفلة التنكرية الباهرة بين القاعات السبع الملونة التي بناها لضيوفه .. كان يريد إبهارهم وجعلهم ينسون .. لكن ضيفًا دخيلًا يرتدي الكفن ظهر لينغص هذا الحفل ..

وحين طارده الأمير بسيفه فر الضيف إلى القاعة الحمراء .. لحق به الأمير هناك ورفع سيفه ليقتله .. لكنه لم يفعل .. لقد كان الضيف هو الموت الأحمر ذاته، وقد استطاع دخول القلعة الحصينة !.. وسرعان ما تساقط الأمير وضيوفه موتى والدم ينز من أجسادهم ..

قصة مروعة لكنها لا تخلو من عظة ..

المشكلة أنها تحدث أمامي الآن بكل تفاصيلها ..

كيف ؟.. لماذا ؟.. لا أدري ....

كان الضيف غريب الأطوار يسير ما بين القاعات في تؤدة، والأمير يصرخ في حراسة :

ـ إنزعوا قناع هذا المهرج لنعرف من هو قبل أن نشنقه !.

لكن الحراس كانوا خائفين ....

وسرعان ما دخل الضيف القاعة الحمراء .. فهرع الأمير مجردًا حسامه نحو هذه القاعة ....

هرعت أنا الآخر ألحق بالأمير ..

ليكن هذا حلمًا أو كابوسًا .. لا يهم .. إن من واجبى أن أنذر هذا الرجل ..

إننى أعرف خاتمة القصة .. ولما كانت القصة مماثلة للحياة لمن يعيشون في أحداثها، فإننى أجرؤ على القول إننى أعرف قدر هذا الأمير بدقة ..

يجب منعه .. يجب الاستغاثة .. يجب إقناع هؤلاء القوم بالفرار من القصر حالًا .. القصر الذى تسلل إليه الموت الأحمر ...

صحت فى جنون :

– لا تلحق به أيها الأمير إلى الغرفة الحمراء !.

هكذا قلتها بالعربية .. الغريب أن الكلمات خرجت من حلقى بالإيطالية .. وفهمتها وعرفت أنهم فهموها ..

لكن الأمير لم يعرنى اهتمامًا ...

هرع إلى داخل الحجرة السوداء .. بعد ثوان سمعت صرخة رعب عاتية .. وسمعت ساعة الحائط تدق دقة واحدة مرتجفة قبل أن تهمد نهائيًا ...

الجثث تتساقط واحدة بعد الأخرى .. الصراخ يملأ المكان ويطرد الضحكات الخليعة التى ملأته من قبل ...

لقد فشلت مهمتى إذن .. يجب أن أفرّ .. أفرّ ....

شعرت بحاجة للسعال فسعلت كاتمًا فمى بكمى .. وحين رفعت كمى وجدته غارقًا بالدماء ..

وأدركت – دون جهد كثير – أن الدماء تنزف من كل سنتيمتر فى جسدى .. لقد دهمنى الموت الأحمر قبل أن أجد وقتًا كافيًا كى أصاب بالرعب ..

إن قدمىّ تذوبان تحتى .. الظلام يدهمنى ....

إننى ....

* * *

٥ ـ القلب الذى كشف السرّ . . .

وثب الشيطان من الصندوق
فأثار هلع الأطفال ..
لم تفلح أية لعبة فى تهدئتهم
ظلوا يتوقعون رعبًا جديدًا .. فكفوا عن السمع ..
كفوا عن النظر .....
انسلّ ذعرهم يملأ الدار من غرفة إلى أخرى ..
حتى حملتهم أمهم فى نهاية الأمر إلى الفراش ..
(إدجار آلان بو)

★ ★ ★

وجدت نفسى جالسًا فى غرفة ضيقة على مقعد .. وحولى ثلاثة من رجال يرتدون ثيابًا رسمية ..

رجال شرطة هم ـ قلت لنفسى ـ ولكن ماذا يريدون منى ؟..

أشعر بأن هذه الجلسة غير عادية .. الغرفة خانقة بها فراش واحد صغير .. وأرضيتها من الخشب البالى المتآكل ..

وكان الرجال جالسين فى شىء من التأدب ، لكن الريبة كانت على وجوههم .. من أنا هذه المرة ؟..

كنت أوقن أننى أدارى سرًا .. ولكن ما هو ؟..

وبدأت أتذكر .. الشيخ العجوز المقيت .. كنت أحبه برغم كل شىء ، لكنى إنسان عصبى .. عصبى إلى حد مروّع ..

كانت عينه اليسرى شبيهة بعين الصقر .. زرقاء .. عليها سحابة تذكرنى بالموت .. وكنت أخافها كثيرًا ..

وصممت على قتل الشيخ كى أتخلص إلى الأبد من مشهد عينه الرهيبة ..

نعم .. إننى أتذكر ذلك جيدًا ..

أتذكره لأننى الآن ـ كما أدركت ـ ألعب دور البطولة فى قصة (إدجار آلان بو) الشهيرة : القلب الذى كشف السرّ ..

يا للغرابة !.. أشعر أن ماضىّ هو ماضى بطل القصة .. لم أعد أنا د . (رفعت إسماعيل) بكل تراثه .. بل أنا شاب مخبول عاش فى أوائل هذا القرن ..

والأسوأ أننى لم أكن أعرف أننى مخبول ..

كل ما فعلته كان منطقيًا للغاية بالنسبة إلى هذا العقل المريض المستقر فى تجويف جمجمتى ..

كنت ـ فى كل ليلة ـ أعالج مزلاج غرفة الشيخ ، وأدس رأسى لأسلط شعاعًا من المصباح الكهربى على عين الرجل .. العين الهامدة الميتة التى أكرهها ..

ظللت أمارس هذا العمل سبع ليال .. وفى الليلة الثامنة صحا الرجل على صوت المزلاج .. أصابه الهلع .. شرع يرتجف كورقة أمام الضوء المتسلط عليه من فتحة الباب ..

راح يتساءل من أنا ، لكننى لم أجب .. ظللت أسلط الضوء عليه ورأسى فى الظلام .. وأدركت أنه أصيب بنوبة قلبية ، وأنه موشك على الانهيار ..

وبعد دقائق توفى الرجل إذ لم يتحمل قلبه كل هذه المعاناة ..

قمت بانتزاع ألواح خشب من الأرضية ، وقمت بدفن جثته الممزقة فى غرفتى .. وأحكمت إعادة الألواح إلى مكانها .. كما أحكمت إزالة أية بقعة دم ..

* * *

وفى الصباح جاءنى رجال الشرطة يستفسرون عن صوت صرخة سمعه أحد الجيران من غرفة الشيخ ليلة أمس ..

أنا أعرف نهاية القصة .. لكنى لن أقع فى خطأ بطل القصة الأصلى .. إن بعض تماسك الأعصاب سيكون كافيًا لنجاتى ..

جلست مع رجال الشرطة فوق أخشاب الأرضية التى يرقد تحتها الشيخ ..

شرعت أثرثر معهم وأمازحهم .. إن هى إلا دقائق وينصرفون .. فهم أصلًا يتوقعون أن ما جاءوا لأجله هراء ..

ولكن ..... دوم دوم !.. دوم دوم !..

ما هذا الصوت ؟..

تمامًا !.. مثل بطل القصة ، أسمع صوت الدقات قادمًا من تحت الخشب .. وأعرف ـ أو أظن ـ أن هذا هو صوت قلب الشيخ اللعين الذى ما انفك ينبض !

هل يسمعون هذا الصوت ؟.. لا !.. مستحيل .. لكنى سأحاول أن أخفيه .. هأنذا أنهض .. أحرك مقعدى فى عنف .. أتجادل بصوت عال ـ دون داع فى الواقع ـ وأضرب الأرض الخشبية بحذائى ..

أنا أعرف أن كل هذا حدث فى القصة الأصلية ، لكنى مرغم على أن أحذو حذو البطل .. عواطفى وقناعاتى الخاصة هى عواطفه وقناعاته .. أنا لا أفهم !.

الرجال ينظرون لى فى حيرة .. أنا واثق بأنهم سمعوا دقات القلب كما سمعتها .. أنا واثق بأنهم يعرفون القصة كلها .. إنهم ـ أولئك الأوغاد ـ يسخرون منى ..

دوم دوم !.. دوم دوم !.. الصوت يتعالى ..

العرق يحتشد على جبهتى ..

الرجال يرمقوننى فى شك ..

وهنا وصلت أعصابى إلى نهاية المطاف ..

نهضت من مقعدى صارخًا :

ـ « نعم !.. أنا قتلت الشيخ ودفنته هنا تحت هذه الأخشاب ..!.. هلموا أخرجوه من هنا وأسكتوا قلبه الذى كشف السرّ !! » .

كنت أعرف أن المشنقة تنتظرنى .. عشت للحظات كل مشاعر المحكوم عليه بالإعدام .. يا للهول !..

إلا أن القصة كانت قد انتهت على كل حال ، ووجدت نفسى أفارق هذا الكابوس إلى كابوس آخر !

* * *

٦ ـ البندول والبئر ...

برغم غيابى المطلق فى هذا الكابوس الشنيع ؛ ظلت قدرتى على الملاحظة والتفنيد قائمة ..

كانت الكوابيس مجسمة تمامًا لها طعم ولون ورائحة .. والإضاءة .. آه من الإضاءة !.. لقد صوّر المخرج الشهير (روجر كورمان) أكثر قصص (إدجار آلان بو) مستخدمًا أسلوب التلوين المسمى (باثيكولور) .. ذلك الأسلوب الذى لا يترك من طيف الضوء سوى اللونين الأزرق والأخضر ، وهكذا يصطبغ الفيلم بكامله بهذين اللونين الكئيبين الباردين .. مع اختيار أماكن تصوير عتيقة تحاصرها خيوط العناكب ..

لقد وجدت نفسى أعيش فى فيلم من أفلام (كورمان) هذه .. الفارق أننى عاجز عن إطفاء جهاز التليفزيون أو مغادرة دار السينما قبل انتهاء العرض .....

* * *

كذلك لم أعجز عن فهم حقيقة موقفى ..

واضح أن التجربة التى مررت بها نجحت فى انتزاعى من عالم الواقع .. ولكن لأدخل عالمًا من الكوابيس لا يجمع بينها سوى أنها وليدة خيال (إدجار آلان بو) المريض ..

ما معنى ذلك ؟ وما سببه ؟ ..

أعتقد أن كل هذه الرؤى كانت متجسدة حية فى ذهن الرجل .. وحين خطوت أنا خارج عالم الماديات ؛ خطوت إلى ذلك العالم المحكم الذى صاغه (بو) .. إننى أفكر مثله وأشعر مثله .. لهذا ـ كان من الطبيعى ـ أن أعيش ذات كوابيسه ..

إنه تفسير مبتور غير مرض تمامًا ..

لكنه التفسير الوحيد الذى أستطيع أن أزعمه ..

★ ★ ★

هذه المرة كان الأفق كله قرصًا من الحروف العربية والإنجليزية مبعثرة فى إهمال ..

وكنت أنا أتدلى فى الهواء .. رأسى يكاد ينفجر من الاحتقان بينما قدماى مربوطتان فى حبل يصل إلى نقطة اللارؤية فى عنان السماء القرمزية التى حاصرتها الغيوم ..

وشعرت أن رأسى يتأرجح .. يتأرجح حول محيط دائرة .. كأنه مؤشر يتجه إلى الحروف لينقل رسالة ما ..

ورأيت حرف (الهاء) يدنو من رأسى .. ثم حرف (الياء) .. إذن هو يمارس معى ذات لعبة المائدة والكوب ، ولكن على نطاق كونى هائل .. إن رأسى هو الكوب والسماء هى المائدة .. ولمحت حرف (الألف) فبدأت أكون كلمات .. فجملًا ..

هـ ـ يـ ـ ا ، حـ ـ ا ـ و ـ ل ، أ ـ ن ، تـ ـ تـ ـ خـ ـ لـ ـ ص ، مـ ـ ن ، هـ ـ ذ ـ ا ، ا ـ لـ ـ كـ ـ ا ـ بـ ـ و ـ س

صحت بصوت دوى كهزيم الرعد فى الأفق :

ـ كيف ؟.. كيف ؟.

وشعرت برأسى يدخل الدائرة من جديد :

يـ ـ مـ ـ كـ ـ ن ـ ك ، أ ـ ن ، تـ ـ نـ ـ جـ ـ و ، لـ ـ و ، نـ ـ جـ ـ نـ ـ حـ ـ ت ، فـ ـ ى ، تـ ـ غـ ـ يـ ـ يـ ـ ر ، نـ ـ هـ ـ ا ـ يـ ـ هـ ، قـ ـ ص ـ هـ ، م ـ ن ، ا ـ لـ ـ تـ ـ ى ، تـ ـ م ـ ر ، بـ ـ هـ ـ ا

أغير نهاية قصة ؟.. هذا هو السبيل الوحيد للنجاة ؟.. يبدو لى سهلًا .. ولكن لماذا ؟.. لماذا ؟..

★ ★ ★

كان ظلام الليل السرمدى يغمرنى .. الظلام يجثم على صدرى كحجر ، والجو ثقيل لا يحتمل ...

وفى أعماقى يقين كامل أننى سجين فى سجن يُدعى (توليدو) رمانى فيه قضاة محاكم التفتيش الأسبانية ، بقسوة لا توصف ولا مبالاة تنم عن أعنف احتقار للجنس البشرى وآلامه ..

كنت أعرف الأساطير العديدة التى حكوها عن هذا السجن ، وأعرف العقاب العبثى المروع الذى ينتظرنى داخله .. لكننى لم أستطع أن أتذكر أننى قرأت قصة كهذه ..

فيما بعد - حين راجعت مجموعات (بو) القصصية - تذكرت أن هذه هى قصة (البندول والبئر) ..

كان التوقيع على هامش الصفحة الأولى يقول (المنصورة - مايو ١٩٤٠) .. لابد أننى قرأتها فى عصر أحد أيام الصيف ، كنت جالسًا فى الشرفة - حتمًا - أتأمل الموجودات والمارة وقلبى ذو الستة عشر عامًا يخفق بأحلام لا نهاية لها .. ولابد أننى قرأت القصة وقلت إنها جيدة ثم أغلقت الكتاب ونسيت الأمر برمته ، فلم يعد إلى عالمى إلا اليوم .. بعد ثمانية وعشرين عامًا من النسيان التام ....!..

* * *

الظلام الدامس .. الترقب .... ثم ضوء خافت أجهل مصدره ..

كنت على ظهرى ممددًا ، مقيدًا إلى إطار خشبى بحزام جلدى سميك ، وكانت ذراعى اليسرى حرّة لتتيح لى أن أتبلغ بطبق على يسارى به لحم متبل ..

ليس وجود اللحم ترفًا .. بل هو جزء من التعذيب ، لأنهم لم يحضروا معه ماء ! ، وكان علىّ أن أتحمل لهيب الظمأ فى أعماقى ..

رفعت عينى إلى أعلى فرأيت بندولاً .. بندولاً يتأرجح مع الوقت .. المشكلة أن هذا البندول كان على شكل منجل من الفولاذ البراق يتأرجح نزولاً - مع كل ثانية - نحوى !..

إذن فهذا هو المصير الذى ينتظرنى على أيدى قضاة محاكم التفتيش ...!..

كم من ساعات مريرة قضيتها أرمق هذا النصل وهو يهبط لأسفل .. دائمًا لأسفل .. رائحة الفولاذ المسنون تتسرب الآن لأنفى .. لا بد أن أيامًا قد مرت علىّ فى هذا الحال ، أرمق النصل يدنو من جسدى .. ببطء .. ببطء .....

كنت أفقد الوعى مرارًا ، لكنى حين أفتح عينى كنت أجد النصل لم يدن من جسدى أكثر !.. لقد كان الشياطين يوقفون عمل البندول إلى أن أفيق من إغمائى حتى لا تفوتنى ثانية عذاب واحدة ..!



رائحة الفولاذ المسنون تتسرب الآن لأنفي .. لابد أن أيامًا قد مرت عليّ في هذا الحال ، أرمق النصل يدنو من جسدي ..

إلى أسفل !.. دائمًا إلى أسفل !..

وتخيلت اللحظة التى سيبدأ فيها النصل تمزيق النسيج على صدرى ثم يذهب بعيدًا .. ليعود كى يمزق المزيد من النسيج .. ثم لحم الصدر نفسه .. و .....

وارتجفت ....

نظرت إلى طعامى فوجدت الفئران تصطرع عليه ..

وهنا خطرت لى فكرة عبقرية .. بيد مرتجفة تناولت قطعة لحم من الباقية فى الطبق وشرعت أدهن بها الحزام الجلدى الذى يقيدنى إلى الإطار الخشبى ..

وعلى الفور شعرت بالحيوانات المريعة تزحف على جسدى .. سمعت صوت القضم والقطع .. وشعرت بأفواهها تتحسس شفتى .. تعبث فى عنقى ..

لكنى تمالكت غثيانى وتماسكت ...

وبعد دقائق طالت شعرت بالحزام يرتخى .. تمكنت من تحرير يدى .. واستطعت تمزيق القيد والنهوض .. وصرت حرًا .. نجوت !..

وهنا رأيت النصل يرتفع لأعلى !..

أصابنى هذا بالإحباط .. هم يراقبوننى طيلة الوقت ، وقد فرغوا من هذه الدعابة لكنهم سيبدءون دعابة أخرى ..

لقد فررت من مصيدة فئران إلى مصيدة أخرى لا أكثر ..

وهنا أدركت الحقيقة المروعة ..

إن الجدران تلتهب !.. تلتهب بالنيران .. والأسوأ هو أنها تضيق من حولى ببطء شديد ..

أدركت أنها تدفعنى إلى مركز القبو .. وهذا المركز كان عبارة عن بئر عميقة لم أدرك لها قرارًا ...

أنا مضطر إذن إلى الاختيار ما بين الموت حرقًا أو سقوطًا من عل ..

* * *

وهنا تذكرت كلمات (بو) .. لو أننى نجحت فى تغيير نهاية قصة لصرت حرًا .. هكذا قال ..

ولكن كيف كانت نهاية هذه القصة ؟.. أنا أعرف أن (بو) لا يحب النهايات السعيدة، وحتمًا الموت هو ما ينتظرنى ولكن كيف ؟.. حرقًا أم فى البئر ؟.. للأسف لا أذكر هذه القصة أساسًا .. ولو تذكرت نهايتها لفعلت أى شىء كى أغيره .. لكننى ـ على كل حال ـ لا أملك سوى الموت ..

وهنا سمعت صوت قعقعة فوق رأسى .. صوت انفجار .. صوت أبواب تفتح .. ثم شعرت بيد تمسك بى لتنتشلنى من القبو .... إذن هناك من اقتحم السجن ليحررنى ..

ورأيت وجوهًا باشة صديقة تتحدث الفرنسية ..

* * *

شعرت أن الكابوس ينتهى، وأن المرئيات تذوب من حولى .. فرحت أقهقه كالمجنون .. أنا أول من يبقى حيًا بعد قصة من قصص (بو) :

ـ لقد فعلتها !.. نجوت من قصتك يا (بو) !.. خرجت منها حيًا !.. لقد أنقذنى جنود فرنسيون فى آخر لحظة .. هاها هاها !.

مرة أخرى شعرت بأننى تحولت إلى بندول معلق فى الأفق .. دائرة الحروف تحيط بى .. رأسى يتجه ببطء إلى حرف (الكاف) .. ثم (اللام) .. ثم ....

كـ ـلـ ـا ، هـ ـذ ـهـ ـ ، هـ ـى ، نـ ـهـ ـا ـيـ ـهـ ، ا ـلـ ـقـ ـصـ ـهـ ـ ، أ ـل ـأ ـص ـل ـى ـهـ !.

ـ ولكننى نجوت !.

شرعت الحروف تتجمع ببطء شديد .. وفهمت ما تريد قوله :

ـ فى نهاية القصة الأصلية ينجو البطل على أيدى جنود الجنرال (لاسال) الذين استولوا على (توليدو) فى آخر لحظة، لينتقموا من وحوش محاكم التفتيش ..!.

ثم أردف (بو) :

ــ لو ــ حقًا ــ أردت أن تبدل نهاية القصة لرميت بنفسك فى البئر .. وعندئذ كنت ستخرج من عالم قصصى الرهيب !.

ــ لم أكن أعرف القصة يا (بو) .. لم أكن أعرفها !.

ــ أتمنى لك حظًا أفضل فى المرة القادمة !!.

وشعرت بالكون يذوب تحت قدمىّ ...

وغصت فى مادة العدم الهلامية المقيتة ...

* * *

٧ ــ القط الأسود ...

كان (إدجار آلان بو) صغير البنية ..

لكنه كان حساس الملامح .. يتمتع بقوة شخصية آسرة ممزوجة بنوع من الشجن والكآبة والكبرياء العاتية ..

كانت له علاقات نسائية ، لكن كل من عرفنه من النساء قلن إنه لم يحبّ فى حياته سوى امرأة واحدة هى زوجته ..

عرف اليتم من الأبوين فى سن صغيرة ، وتبناه تاجر غنى اسمه (جون آلان) هو من منحه اسم (آلان) هذا ..

وبرزت موهبته الأدبية غير العادية فى سن مبكرة ، حتى أنه صار مسئولًا بالكامل عن تحرير مجلة أدبية كبيرة فى سن الثانية والعشرين ..

ويصفه الشاعر الفرنسى العظيم (بودلير) قائلًا :

ــ لقد اجتاز هذا الرجل قمم الفن الوعرة .. وهوى فى حفر الفكر الإنسانى ، واكتشف ــ فى حياة أشبه بعاصفة لا تهدأ ــ طرقًا وأشكالًا مجهولة يدهش بها الخيال ويروى العقول الظامئة إلى الجمال ، هذا العبقرى مات عام ١٨٤٩ فوق مقعد فى الشارع .. وكان عمره يدنو من الأربعين عامًا .

* * *

لما حاولت أن أهوى فوق رأس القط بالفأس ؛ أوقفتنى يد زوجتى الرقيقة هاتفة أن لا ..

لكن أبخرة (الأفيون) تصاعدت إلى رأسى ، فلم أجد مفرًا من أن أهوى فوق رأسها هى لأهشمه إربًا ..!

هكذا بدأ هذا الكابوس بداية حماسية مبالغًا فيها ..

هأنذا - بعد ثانية من بدء الكابوس - أقف بفأس تلوث نصله بالدم أرمق جثة زوجتى فى ندم وحيرة ...

أية قصة هذه ؟.. لا أذكر أننى قرأت قصة مشابهة لـ (إدجار آلان بو) .. فلأدع الأحداث تستمر ولسوف أتذكر وقتها ..

وهنا رأيته يقف أمامى بجسده الأسود ، وفمه الأحمر المقيت وعينه العوراء .. ذلك القط الأسود اللعين ..

عندئذ تذكرت ..

إن القصة التى أمامى هى قصة (القط الأسود) ، وهى - لعمرى - من أشنع قصص (بو) وأكثرها قتامة .. أنا شخصيًا كنت أمقتها أكثر من أية قصة قرأتها فى حياتى ...

لكنها - وهذا حق - مفعمة بالنقاط التى يمكن تغييرها .. فأنا أذكر كل تفاصيلها بدقة ، وأعرف عن حق الأخطاء التى ارتكبها البطل والتى لم يرتكبها ....

حتى اسم القط أذكره .. إنه (بلوتو) مثله مثل اسم (بلوتو) حاكم مملكة الموتى المظلمة (هيدز) عند الإغريق ..

* * *

طبقًا لهذه القصة أنا إنسان رقيق مرهف الحس يحب الحيوانات ، ويعاملها بما هى أهل له ..

ثم وقع فى براثن الإدمان اللعين ، فصار مع الوقت مصابًا بذلك الداء المرادف للإدمان : عمل أشياء ما كان ليفعلها لو كان محتفظًا بكامل عقله .. أشياء يندم عليها أشد الندم حين يفيق ..

وطبقًا لمتطلبات هذا الداء صرت أضرب زوجتى ضربًا مبرحًا .. وصرت أقسو على حيواناتى أشد القسوة ..

ثم كان أن وقع ذلك الحادث الأليم ..

كنت عائدًا إلى الدار واصطدمت بالقط ، الذى أنشب أنيابه فى ساقى .. حادث طبيعى لكنه حدث لإنسان غير طبيعى ..

وكان من المحتم أن أستجيب له بشكل غير عادى ..

رفعت القط وفقأت عينه اليسرى بمطواتى ..

ومن يومها صار يطاردنى فى البيت ككابوس يذكرنى طيلة الوقت بفعلتى الشنعاء .. الفجوة السوداء المظلمة تملأ أحلامى بالذعر ..

وحين بلغ السيل الزبى كان الحلّ الوحيد الباقى لى هو أن أعلق أنشوطة أشنق فيها هذا القط البائس !..

كانت زوجتى تقول لى دومًا إن القطط السوداء هى سحرة متنكرون ، والواقع أننى بدأت أصدق هذا القول ، إذ أذكر الأحداث التى تلت هذا ..

الحريق الذى اشتعل فى البيت فى الليلة ذاتها .. ولم يستطع أحد أن يجد له تفسيرًا قط ..

ثم رسم القط المشنوق الذى وجدته على الجدار الوحيد الذى ظلّ سالمًا بعد الحريق .. لم أجد كلمات تشرحه ..

كل هذا كان نذيرًا بشىء ما .....

لهذا كان ينبغى ألا أرى ذلك القط الأسود الأعور الذى صادفنى فى الحانة ذات ليلة .. لم يكن له صاحب .. وكانت على صدره بقعة بيضاء لا شكل لها ..

ما كان ينبغى أن أراه .. وما كان ينبغى أن آخذه معى للدار .. كنت واثقًا أنه ليس القط الأول الذى شنقته بنفسى فوق غصن الشجرة فالقط المذكور لم تكن هناك بقع بيضاء على صدره ..

ودارت الأيام ..

لكنى - والحق أقول - كنت أخشى هذا القط بشدة .. كنت أرتجف هلعًا من مرآه .. وبالأخص من مرأى صدره ..

كانت البقعة البيضاء التى لا شكل لها تتشكل ببطء فى صورة .. آه !.. لا أجرؤ على القول .. صورة مشنقة !

يومًا فيومًا تتشكل المشنقة أكثر .. وتلاحظ زوجتى ذلك .. أطالبها ألا تتكلم عن ذلك .. لكنها تصرّ ..

حالتى النفسية تزداد سوءًا ..

أجلب الفأس وأهرع نحو القط لأقتله ..

لكن امرأتى تحاول منعى .. فيهوى الفأس ليشج رأسها !

★ ★ ★

فارس شجاع سافر طويلًا ..
فى الليل والصبح بحثًا عن (الدورادو) ..
لكنه تقدم فى العمر وسقط الظل على قلبه ..
إذ لم يجد مكانًا فى الأرض يشبه (الدورادو) ..
وإذ خذلته قواه رأى ظل حاجّ يمرّ بقربه ..
فسأله : أيها الظل أين عساى أجد (الدورادو) ؟..
أجاب الظل : فوق جبال القمر ..
وفى وادى الظلال امتط حصانك بجسارة ..
إذا كنت تبغى (الدورادو) ..

(إدجار آلان بو)

★ ★ ★

لم أكن أبغى (الدورادو) أرض الذهب الأسطورية ..

كنت أبحث عن مخرج يقينى تكرار أحداث القصة الرهيبة ، فمن المفروض ـ حسب ما فكر فيه (بو) ـ أن أدفن زوجتى فى ثغرة بالجدار حتى تختفى جثتها أبدًا ..

إذن لن أفعل ذلك .. سأبلغ الشرطة بكل بساطة ، وهكذا تتغير أحداث القصة ، وأعود إلى زمنى الأصلى ..

نعم .. يمكننى الآن أن أفتح باب هذا المنزل وأنادى الجيران كى يخفوا إلىّ ليفضحوا أمرى .. و ......

وهنا فطنت إلى حقيقة مروعة ..

إننى كنت أتكلم وأتكلم .. لكن يدىّ كانتا مشغولتين بتقليب الملاط ، ووضع قوالب القرميد بعضها فوق البعض ..!

* * *

(رفعت) .. قاوم الحفرة التى ستغوص فيها .. حاول أن تبقى على السطح !!..

* * *

إذن فالأمر حتمى ..!

لا مفرّ لى برغم محاولاتى العنيفة كى لا أفعل ما أفعله ..

الجدار قد ارتفع مداريًا جثة زوجتى كما حدث فى القصة الأصلية بالضبط .. ولم أكن أعرف أننى أجيد البناء ..

كأن يدىّ لهما حياة وإرادة خاصتين بهما ..

والأسوأ هو أننى ارتكبت عامدًا ذات الخطأ الذى ارتكبه بطل القصة .. حبست القط حيًا داخل فجوة الجدار مع الجثة .. وليكونن هذا القط هو بداية النهاية ..

* * *

وجاء رجال الشرطة يسألون عن زوجتى ..

شرعت أدعوهم فى مرح لتفتيش البيت ، وأدعوهم إلى أن يتفحصوا كل موضع وكل مكان ..

كلا يا (رفعت) !.. لاتطرق الجدار الذى أخفيت به الجثة .. أرجوك لا تفعل !.. بطل القصة كان يجهل ما ينتظره أما أنت فتعرف .. أرجوك !..

لكن هذا حدث .. رفعت قبضتى وطرقت الجدار ..

عندئذ دوى صوت العواء الطويل الذى جمّد الدم فى عروقهم ..

وها هم أولاء رجال الشرطة يهدمون الجدار ..

وها هى ذى جثة زوجتى المتعفنة تبدو للعيان ، وفوق رأسها وقف القط الأسود يرمقنى بفجوة عينه المريعة ، وقد فغر فاه الأحمر عن عواء صامت منتصر ..

لقد حاولت جهدى كما رأيتم .. وفشلت !..

فإلى كابوس آخر ......

* * *



وهاهى ذى جثة زوجتى المتعفنة تبدو للعيان ، وفوق رأسها وقف القط الأسود يرمقنى بفجوة عينه المريعة ..

٨ - سقوط منزل (أشر) ...

حين وجدت نفسى أتأرجح كالبندول أمام الأفق ؛ صرخت بصوت اهتزت له الأشجار فوق الأرض ، والغيوم القرمزية فى السماء :

- تبًا لك يا (بو) !.

لقد أرغمت على الحياة فى عوالم خيالك المريض التى هى بخار من أبخرة الأفيون الذى كنت تدمنه ، فويل لى أنا الذى نال عذابين ...

عذاب أبطال قصصك بمصائرهم الرهيبة .. وعذاب محاولتى للفرار من هذه المصائر كفأر فى مصيدة .. بلا أمل فى الخلاص .. فهل يكون الخلاص يوم ينتهى مخزونك من القصص ؟.. إنك كنت غزير الإنتاج - للأسف - وخلفت لنا كمًا لا ينتهى : الحشرة الذهبية .. الدوامة .. تابوت ليجيا .. الضفدع القفاز .. موريللا .. إليانورا .. إلخ .. إلخ ..

فهل سأمرّ بكل هذا ؟..

المصيبة أننى أعيش كل عذابات وآلام أبطال قصصك .. وهى عذابات لا يطيقها المرء سوى مرة واحدة فى عمره .. لكننى أعيشها جميعًا فى عمر واحد ..

ـ تبًا لك يا (بو) !.

لقد كذبت علىّ .. زعمت أننى أستطيع الفرار .. ولكن لا أمل لدىّ .. إن أحداث القصة لها حتمية قدرية لا تتبدل ومهما حاولت فمسار القصة أشبه بنهر ماض من منبعه إلى مصبه .....

ص ـ ب ـ ر ـ ا ، ت ـ ذ ـ ك ـ ر ، حـ ـ ى ـ ا ـ تـ ـ ى ، و ـ ا ـ ل ـ ا ـ م ـ ى ، و ـ ل ـ س ـ و ـ ف ، تـ ـ ج ـ د ، ا ـ ل ـ ح ل !

* * *

حياتك ؟.. لقد كنت نموذجًا للفشل فى كل شىء حاولته يا (بو) .. طردوك من جامعة (فرجينيا) لإفراطك فى الشراب .. طردت من الأكاديمية الحربية فى (وست بوينت) لأنك كنت تتخلف عن الطوابير العسكرية مفضلًا كتابة الشعر .. طردك الثرى الذى ربّاك ورفض أن يوصى لك ببنس واحد ..

قالوا إنك مجنون ..

ربما كان هذا صحيحًا .. إن كل هذه العبقرية لا تخرج إلا من عقل أحرقت الموهبة خلاياه .. كانت لك أخت مجنونة .. ولربما كانت فى عقلك بعض من (كروموسوماتها) .. بذرة الجنون ..

حتى زواجك كان غريبًا .. زوجتك كانت فى الثالثة عشرة من عمرها وأنت قاربت الثلاثين ..! كانت طفلة .. ولم يكن فى حوزتك ما تقدمه لها سوى الشعر .. ماتت أمام عينيك من المسغبة ومن داء الصدر اللعين ، لكنك لم تملك لها سوى معطفك العتيق العسكرى تغطيها به ..

أى عذاب وأى ألم عشته فى حياتك أيها العبقرى المجنون ! وحين ماتت لم تستطع دفنها إلا بما جاد به جيرانك عليك ..

* * *

حمدًا لله !

قد انتهى الخطر .. وولّى المرض الطويل ..
وانتهت الحمى التى يسمونها (الحياة) ..
أعرف أن قواى قد فارقتنى
وأننى عاجز عن تحريك عضلة واحدة
لكن هذا لا يهم ..
أشعر أننى أفضل حالًا بكثير ..
لقد سكن كل هذا الأنين والعواء والتنهد والبكاء
ومعها سكن ذلك الخفق الرهيب فى القلب ..
لقد انتهت تلكم الحمى التى يسمونها (الحياة) ..

(إدجار آلان بو)

* * *

هذه المرة أنا فوق صهوة جوادى ـ لم أدر من قبل مدى براعتى فى الفروسية ـ قاصدًا دار صديقى (رودريك أشر) .. بناء على دعوة عاجلة منه يقول فيها إن مرضًا نفسيًا عضالًا قد ألم به ، وهو فى حاجة ماسة إلى وجودى جواره ..

كان اليوم يومًا كئيبًا من أيام الخريف ، وانقباض غير عادى يغزو روحى ، إذ أرى جدران البيت الباردة الرمادية ، ممتزجة بسماء مكفهرة كئيبة ....

إننى أذكر قصة كهذه .. قصة بها اسم (أشر) لكننى لست واثقًا من تفاصيلها ...

ثمة فارق هائل ما بين قراءة قصة وأنت فى فراشك ليلًا فى تلك الدقائق التى تفصلك عن النعاس ؛ وقراءتها لتعيشها بكل تفاصيلها .. بل وتحاول تغيير هذه التفاصيل ..

أدركت أن القصة بعد فى بدايتها لأننى لا أحمل أية ذكريات عن أية أحداث ، سوى معرفة سطحية بصديقى (رودريك أشر) الهادئ المنطوى آخر أفراد سلالته ..

★ ★ ★

غريب هذا ...!

حتى الهواء ذاته مصبوغ باللون الرمادى الكئيب ...!..

وعندما دخلت الدار بصحبة أحد الخدم وجدت المكان يفوح بعبق القدم .. دروع .. أسلحة .. ستائر يدوية ..

أما (أشر) نفسه فكان شاحبًا كورقة .. شعره أشعث مبعثر فى غير نظام حول رأسه ، وشفتاه صارتا أقرب لندبه فى وجهه ..

أية خبرات مروعة مرت بهذا الرجل ؟!...

قال لى فى شرود إن مرضه أدى إلى حدة غير عادية فى حواسه فهو لا يطيق إلا الطعام ماسخ الطعم .. ولا يحتمل رائحة الزهور .. ولا يلبس إلا قماشًا ناعم الملمس .. ولا يتحمل أى صوت ..

ـ « لقد سيطرت جدران هذا البيت على روحى .. أنا مشدود إليه بكل قواى » .

وهنا لاحظت شبحًا يمرّ عن كثب ..

أدرت وجهى نحوه فرأيت فتاة ناحلة مهزولة تمرّ بالغرفة .. ولم تنظر نحونا أو تقول شيئًا ..

نظرت إلى (أشر) مستفهمًا فوجدته يبكى ..

قال لى فى تأثر بين شهقاته :

ـ هى أختى (مادلين) .. آخر أفراد الأسرة .. وهى تعانى مرضًا عضالًا يؤدى إلى فقدانها الوزن باستمرار ، بل ـ والأدهى ـ يؤدى إلى توقف قلبها من حين لآخر .. وعندئذ تبدو ميتة لكل من يراها .. لن تلبث (مادلين) أن تلحق بأجدادى وأصير أنا وحيدًا فى هذا العالم القاسى .

وهنا التمعت الفكرة فى ذهنى كومضة مصباح ..

أنا الآن فى قصة (سقوط منزل أشر) ..!.. تذكرت القصة وتذكرت ما يحدث فيها ..

إنها لمن أشنع قصص (بو) وأكثرها كآبة ، وفى الأدب العالمى هى من أشهر قصص (الدفن حيًا) التى يخيفون بها مرضى تصلب العضلات وغيبوبة السكر ..

* * *

ظللت ساعات أصغى لآراء (أشر) الكئيبة ، وفلسفته المختلطة المضطربة التى ألهمه إياها مرضه العضال ..

الواقع أنه هو نفسه لم يكن يدرى ما يتكلم عنه ، وكان فهمه للحياة مختلطًا فغدا من العسير أن ينقل لى هذا الفهم ، غير أنه كان يحاول التعبير عن ذاته فى إطار الرسم وإطار الموسيقا الشاذة المضطربة ..

كان يؤمن بأن لجميع الجمادات حياة خاصة بها .. لهذا استطاع أكثرها أن يوجد لنفسه بيئة ملائمة تحيط به .. والدليل على هذا هو الهواء الراكد الغريب الممرض الذى يحيط بأحجار هذا البيت ..

الواقع أننى أنا الآخر بدأت أشعر بهذا ..

كان البيت طاغية ، خلق لنفسه عالمه الكئيب الذى احتكر أرواحنا .. وأعتقد أننى لو كتب علىّ أن أحيا فيه لفقدت رشدى حتمًا .. لكننى عزيت نفسى على اعتبار أن هذه فترة عارضة ..

* * *

وجاء اليوم الذى كنت أخشاه ..

جاءنى (أشر) فى هدوء ليقول لى :

ـ ماتت (مادلين) !.

ثم أخبرنى أنه ينوى ألا يدفنها قبل أسبوعين ، بعدها سينقلها لتدفن فى قبو أسفل القصر ..

وذهبت معه لنحمل الجثة إلى التابوت ، ثم نحمل التابوت إلى غرفة صغيرة مغطاة جدرانها بالنحاس ولها باب حديدى ثقيل ..

واستطعت أن ألقى نظرة على وجه الجثة للمرة الأولى .. كانت تشبه (أشر) إلى حدّ مروع ، وعرفت أنهما كانا توءمين غير متماثلين .. على ثغرها الرفيع ابتسامة شاحبة رقيقة أثارت ذعرى .. ولون بشرتها لم يشحب بعد تمامًا ..

تعاونا على إرجاع الغطاء ، ثم أوصدنا الباب الحديدى وعدنا إلى الجزء الأعلى بالدار ....

* * *

الآن جاء دورى لأغير أحداث هذه القصة ، ولأمنع مأساة أعرف أن وقوعها حتمى وإن يكن غير ضرورى ..

كان (رودريك) يداعب أوتار الكمان ذاهلًا ، حين تنحنحت وقلت له فى وقار :

- (رودريك) .. إن أختك لم تمت بعد !.. يجب أن نخرجها من التابوت حالًا ..

اتسعت عيناه وازداد شحوب وجهه :

- ماذا أوحى لك بذلك ؟.

- لأننى .. أعرف ذلك .. أنت لا تعرف أننى وأنت جزء من نسيج مجنون طرّزه رجل يدعى (إدجار آلان بو) .. وطبقًا لهذا لم تمت (مادلين) بعد .. لقد وضعناها فى التابوت حية ولن تلبث أن تراها أمامك وفى عينيها نظرة اتهام !.

- هذا هراء !.

كدت أنفجر باكيًا من الغيظ والحنق .. لقد وضعتها معه فى التابوت لأننى كنت مجبرًا .. لكنى لن أتركها هناك .. فقط أحتاج لعونه .. لكنه ظل يداعب أوتار الكمان مصدرًا لحنًا كنياط قلب تتمزق ، وشرع يردد دون كلل :

- ماتت (مادلين) .. صرت وحيدًا !.. ماتت .

- لم تمت يا (رودريك) .. أصغ لى .. أنت لن تدفنها الآن كما قررت لأنك تخشى ذات الشىء .. إذن كل ما أطلبه هو أن نخرجها من التابوت ونرقدها فى الفراش ، ونلتف حولها .. بضع ساعات .. يومًا .. أو يومين .. فربما وقع المحظور ..

نظر لى متفكرًا هنيهة .. ثم قال :

- لكن ..لـ.. هلم نخرجها من ذلك التابوت ونرى إن كان حدسك صائبًا !.

كان هذا هو نصرى الأول على حتمية القصة ..

لقد نجحت فى إقناعه بالتريث .. ولعمرى لتكونن فى هذا نجاتى من المأزق الذى يحاصرنى ولا مخرج منه .. أنا متأكد من هذا ..

* * *

ترك الكمان ونهض ليذهب معى إلى حيث دفنت (مادلين) ..وهنا خيل لى أننى أسمع صوت أنين.. ثم صوت ضربات تهوى على جسم معدنى.. التفت نحوه متسائلًا فسمعته يصرخ:

- يا للهول !.. ألم تفهم بعد ؟.. إنها هناك !.. لقد غادرت التابوت الذى كانت به .. وهى الآن قادمة نحوى لتلومنى على دفنها دون أن أتأكد !.. يا ويلى !.

والتفت لأرى ما يعنيه .. إذ انفتح الباب عنوة محدثًا جلبة ..

عند الباب كانت (مادلين) بلحمها وشحمها فى ثوبها الأبيض الطويل .. وفى عينيها نظرة لا أجرؤ على وصفها .. ورأيتها تجرى نحو (أشر) ثم تهوى فوقه فاقدة الحياة بعد ما استنفدت قواها فى الخروج من تابوتها .. هو أيضًا لم يتحمل الصدمة وسقط أرضًا ...

الذعر يستبد بى .. أفارق المنزل أقرب إلى المجانين وأركب حصانى .. وإذ أنظر إلى الخلف أرى ....

الشرخ فى جدار البيت يتسع .. يزداد عمقًا .. ثم المنزل كله يتهدم وتتساقط أحجاره فى مياه البحيرة .. يختفى من وجه البسيطة .. لقد قضى المنزل على آل (أشر) .. وحين هلكوا قضى المنزل على نفسه ..

هذه هى نهاية القصة كما أعرفها ..

لقد تأخرت كثيرًا فى دعوة (أشر) إلى فتح التابوت، وتعجلت كثيرًا مغادرة الدار بعد هلاك الأخوين ..

فلو كنت قد تعجلت فى الأولى أو تلكأت فى الثانية لكانت نهاية القصة قد تغيرت، وغدوت حرًا ......

ترى إلى أية أسطورة مرعبة جديدة يأخذنى خيال (بو) ؟!

* * *

٩ - ويليام ويلسون ...

« رباه !.. لقد اصطنع الموت لنفسه عرشًا
فى مدينة غريبة متوحدة
بعيدًا فى الغرب المعتم ..
حيث ولّى الخيِّر والشرير والأسوأ والأفضل
إلى راحتهم السرمدية ..
هناك تجد عروشًا وقصورًا وأبراجًا
(أفناها الزمن لكنها لاترتجف)
ولا تشبه شيئًا فى عالمنا ،....
هنالك ترقد مياه الأحزان ... »

(إدجار آلان بو)

* * *

لم أكن - بين قصة وأخرى - أعرف من أنا ولا أين أنا .. كنت أشعر بذاتيتى وأعرف أننى هو أنا .. لكننى كنت - مثلًا - أجهل اسمى ومهنتى وسنى وذكرياتى ..

ولم يكن لى كيان مادى .. فمثلًا لم أكن قادرًا على رؤية يدى أو قدمى .. لكننى كنت أرى الأفق القرمزى، والحروف المنتشرة فيه كمائدة عملاقة لتحضير الأرواح، وإننى لأسائل نفسى عن شكل الكون الذى كنت سأراه لو استعملنا أسلوب البلورة أو السلة مثلًا .....

يذكرنى هذا الكون الغريب بالرؤى التى يبعثها عقار (إل إس دى) ـ عقار الهلوسة ـ فيمن يتعاطاه، ويذكرنى أيضًا بمملكة (زانادو) الغريبة التى ضاع فيها الكاهن الأخير (كما حكى لى طبعًا) ..

أنا لست من معتادى الهلوسة .. وحتى الرؤى التى يحكى عنها من يمرّون بالتخدير الجراحى لم يكن لى نصيب فيها .. لقد أجريت جراحة استئصال اللوزتين فى سن الثانية عشرة .. دسّوا المحقن فى عرقى فأغمضت عينى، وفتحتهما بعد ثانية واحدة لأعرف أن الجراحة تمت، وأن هذه الثانية كانت نصف ساعة ..!

لهذا كنت مندهشًا مذهولًا لا أصدق شيئًا مما أراه ......

★ ★ ★

قبل أن تبدأ القصة الجديدة أخذت عهدًا على نفسى أن تكون هى الأخيرة .. ليس لدىّ وقت يسمح بقضاء عمرى فى هذا العالم القاتم المخبول الذى يلخص كل تعاسات البشر وأحزانهم ..

من الغريب ـ ألاحظ هذا الآن فقط ـ أن قلبى تحمل كل هذه المعاناة دون أن تنهار شرايينه التاجية .. هذا يعنى أننى منفصل تمامًا عن جسدى وأن روحى هى التى تخوض غمار هذه القصص ..

هل أنا ميت ؟..

لا أعتقد ... أنا لم أضل طريقى فى عالم الأرواح، بل فى عالم الخيالات التى صاغها عقل بشرى موهوب .. وهذا يخالف كل ما أعرفه عن العالم الآخر .. حتمًا أنا ضحية نوع فريد من الهلوسة أو الإيحاء أو التنويم المغناطيسى ..

إن منطقى لم يخذلنى من قبل ولن يخذلنى هذه المرة ..

فلأ حاول أن أرتب أفكارى وأن استخلص معلومات ما من الوضع الذى أنا فيه ..

ما هى القصص التى مررت بها ؟..

كلها قصص لـ (إدجار آلان بو) .. ويمكننى أن أرتبها كما يلى :

١ ـ قناع الموت الأحمر، لم أكن بطلًا مباشرًا فيها بل مجرد مدعو من المدعوين، وقد وصلت فى منتصف القصة بالضبط. وانتهت القصة بهلاكى. كان الخطر هو وباء (ربما التيفوس) .



إن الموت مسيطر على كل هذه القصص .. ورائحته تفوح بقسوة ما بين السطور ..

٢ ـ القلب الذى كشف السرّ ، هنا كنت البطل الأساسى . وكنت قاتلًا مخبولًا . وأخفيت جثة سرعان ما كشفت عنها للشرطة لأنى سمعت صوتًا لا وجود له . انتهت القصة باستعدادى للإعدام .

٣ ـ البندول والبئر ، مرة أخرى أنا البطل الأساسى .. ولكنى ضحية لألعاب شيطانية من قضاة التفتيش .. القصة تنتهى بنجاتى .

٤ ـ القط الأسود ، هنا تتكرر تيمة القاتل الذى يفضح نفسه بنفسه ، ودفن الجثة . مع مسحة ميتافيزيقية هى انتقام القط من معذبه . تنتهى القصة باستعدادى للإعدام .

٥ ـ سقوط منزل (أشر) ، هنا ألعب دورًا فرعيًا .. البطولة الأساسية هى لـ (أشر) .. الخطر هنا هو البيت والمرض الذى أصاب (مادلين) مما أدى لدفنها حية . تنتهى القصة بنجاتى . بالمناسبة هذه هى أول قصة أحضرها منذ بدايتها .

إن الموت مسيطر على كل هذه القصص .. ورائحته تفوح بقسوة ما بين السطور ، الدفن يتكرر فى ثلاث منها فهل هى مصادفة ؟..

يمكن القول إنها أربع لأننى دُفنت مجازًا فى قصة البندول والبئر .. قمت بفضح نفسى للشرطة فى قصتين ..

وهنا خطر لى شيء .. ربما لم تكن هذه الكوابيس عشوائية كما خطر لى أولاً .. هناك نمط معين يربط بينها ، لاحظت كذلك أن (بو) كان قاسيًا للغاية على أبطال قصصه بينما أكثرهم لم يرتكب خطأ .. ما ذنب (أشر) كى يلاقى كل هذا الرعب ؟.. وما ذنب سجين محكمة التفتيش ؟.. وما ذنب المدعوين الأبرياء إلى حفل الأمير (بروسبيرو) ؟.. حتى حين حدث قتل فى قصصه كان القاتل مسلوب الإرادة أقرب إلى الجنون .. وما من محكمة معاصرة تدين قاتلاً كهذا .. لكن (بو) أدانه وحكم عليه بحكم شنيع ..

سيكون هذا ذاعون لى لو وجدت نفسى فى قصة لا أذكرها .. تبًا لها من قاعدة مهزوزة مخلخلة !.. لكنى لا أرى أمامى غيرها .. هل أنا على صواب أم أن الإرهاق والحيرة جعلانى أتوهم ؟!

* * *

فى هذه المرة أنا أدعى (ويليام ويلسون) ..

فيما بعد عرفت أن هذا الاسم مستعار لأن القصة تبدأ بالسطور التالية :

« اسمحوا لى مؤقتًا أن أدعو نفسى (ويليام ويلسون) .. لا أريد لهذه الصفحة الطاهرة أن تتدنس باسم الذى جلب العار على عائلته .. ألم تنثر الأعاصير جسد الذى لا مثيل له

فى أقصى أقاليم الأرض ؟.. آه أيها المنفى الأكثر إحباطًا بين المنفيين !.. ألم تغب للأبد عن هذا الكون بزهوره وأمجاده وأحلامه الذهبية ؟ » .

وهذا معناه أن الاسم حركى ......

تدور القصة أولاً فى أروقة مدرسة إنجليزية عتيقة موحية بالكآبة والصرامة ..

أما عنى أنا ـ هذا الـ (ويليام ويلسون) ـ فأنا طاغية مسيطر على زملائى الطلاب بطبع حاد أقرب إلى العصبية ..

كل التلاميذ خضعوا لى ما خلا طالبًا وحذا يتحدانى فى كل ثانية بمناسبة أو بدون مناسبة ..

وكانت وقاحته وتحديه تجاهى ممزوجين بنوع ما من المودة التى لا محلّ لها من الإعراب ، مما أثار غيظى وحفيظتى عليه ..

الغريب هنا أن هذا الطالب كان يُدعى مثلى .. (ويليام ويلسون) .. أو ـ بمعنى أدق ـ كان يُدعى بذات الاسم الأصلى لى ..!

* * *

ما زلت عاجزًا عن تذكر هذه القصة ..

هى من القصص التى لم تعلق بذاكرتى منذ أن قرأتها يومًا ما وعمرى لم يتجاوز العشرين .. فلم أعلق عليها أهمية خاصة ..

وعمومًا هى ليست من القصص التى تثب للذهن بمجرد الكلام عن أدب (إدجار آلان بو) .. فهل ستتضح تفاصيلها أكثر ؟..

واضح على كل حال أننى ما زلت فى البداية ، فلم يفتنى من الأحداث الشىء الكثير ....

★ ★ ★

الغريب هنا أن كلينا ـ أنا وخصمى ـ مولود فى ١٩ يناير عام ١٨١٣ .. أليس هذا شاذًا ومريبًا ؟..

كان يقلدنى فى الملبس والسلوك وحتى طريقة الكلام التى نجح فى انتحالها برغم نبرة صوته الخفيضة للغاية فى كلامه ، فحنجرته لم تكن تتيح له الكلام بصوت عال ، وهى نقطة ضعف فيه أحسنت السخرية منها مرارًا ..

مع الوقت تحولت عاطفتى نحوه إلى مقت صريح لم أستطع إخفاءه ، مع شعور لا يمكن تفسيره يقول لى إننى عرفت هذا (الآخر) يومًا ما فى زمن سحيق للغاية .. هذا الشعور ولى سريعًا ولم يبق فترة كافية ، لكننى مرغم ـ بحكم الدقة ـ على ذكره ..

ثم كان الحادث ....

ليلة تسللت إلى غرفته فى المدرسة مزمعًا أن أثير رعبه بمداعبة ثقيلة .. كان المصباح فى يدى .. أزحت ستائر فراشه و ...

★ ★ ★

لاحظت هنا أن هذا الحدث يتكرر مرة أخرى .. تسليط ضوء المصباح ليلًا على شخص نائم ، حدث مرة مع العجوز فى قصة (القلب الذى كشف السرّ) .. ويتكرر مرة أخرى فى هذه القصة ..

لابد أن هذه الفكرة كانت تمثل كابوسًا مقيمًا لـ (بو) .. أن يصحو من النوم فى الظلام ليجد كشافًا قويًا مسلطًا على وجهه ودون أن يتبين حامل الكشاف .....

هل لهذا الاستنتاج دلالة ما ..؟..

سأحاول إذن أن أطفئ هذا المصباح ....

إن نقاط ضعف هذا العالم الذى أنا فيه ، لابد أنها نقاط ضعف (إنجار آلان بو) شخصيًا ..

لربما هو يتمنى فى سره لو انطفأ المصباح .. المصباح المخيف الذى حرّك كوابيسه جميعًا ..

إذن فلأحاول ...

حركت يدى لأطفئ المصباح فوجدتها ـ ويا للعجب ـ تستجيب لإرادتى .. إذن فلى إرادة حرة فى هذا العالم !

فى اللحظة التالية ساد الظلام ..

وأيقنت أننى لم أعد فى غرفة (ويلسون) ..

رأيت الأفق القرمزى من جديد .. وشعرت بجسدى يتأرجح عبر القرص العملاق نحو الحروف التى كنت أرجوها :

لـ ـ ق ـ د ، إ ـ ق ـ ت ـ ر ـ ب ـ ت ، ج ـ د ـ ا ، م ـ ن ، ا ـ ل ـ خ ـ ل ـ ا ص !

صحت وأنا أشعر بأن رأسى يوشك على الانفجار مما فيه من دماء :

ـ ماذا تعنى أننى اقتربت؟ ظننت هذا هو الخلاص !.

ل ـ ى ـ س ، ب ـ ع ـ د ، إ ـ ن ، أ ـ م ـ ا ـ م ـ ن ـ ا ، ا ـ ل ـ ك ـ ث ـ ى ـ ر ، م ـ ن ، ا ـ ل ـ م ـ ر ـ ح ، م ـ ع ـ ا

ـ عليك اللعنة !.

وانفجرت فى سيل من عبارات السباب .. أسوأ عبارات سباب تلفظتها فى حياتى وتعلمتها من أصدقاء السوء ..

ـ إذن أنت تتسلى بى أيها الـ (....) !..

لقد نجحت فى إنهاء قصة (ويليام ويلسون) قبل أن تبدأ .. هدمتها فى نقطة محورية هامة هى التى كانت ستؤدى إلى تركى لمدرسة (برانسبى) والتحاقى بكلية (إيتون) وما يلى ذلك من انحرافى ومطاردة (ويلسون) لى كالضمير .. من ثم اضطرارى لقتله ..

عرفت هذا بالطبع حين راجعت القصة فيما بعد ..

ولكن هذا لا يرضى معذبى ..

هو ذا يقودنى ـ فى صمت ـ إلى كابوس جديد ...

* * *

١٠ ـ ليجيـا ....

« كنت لى كل شىء يا حبيبتى ..
جزيرة خضراء فى البحر
نافورة .. عرشًا
وكلها مزدانة بزهور الحلم
وجميعها ملكى ....
كان هذا حلمًا أكثر تألقًا من أن يدوم ..
أملًا نجميًا ما كاد يبزغ حتى خبا !..
صوتًا من المستقبل يدعونى أن أستمر
لكن روحى ظلت فى الماضى
خرساء .. عاجزة .. منبوذة ! »

(إدجار آلان بو)

★ ★ ★

كنت قد بدأت أدرك قواعد اللعبة ..

يجب أن ألعب على هواجس (بو) الشخصية ، ومخاوفه التى تتبدى فى قصصه .. هذه هى نقاط الوهن التى لا تستعصى على التبديل ..

أن (بو) ـ كما فهمت ـ يملك هواجس عدة : الكشاف المسلط على الوجه ـ الأفيون ـ طقوس الدفن ـ الشرطة ـ وفاة زوجته .. إذن لأضعن هذه النقاط أمامى وأواجه القصة الجديدة ...

★ ★ ★

كان هذا قرب نهر (الراين) ..

كالعادة أنا أتحدث الألمانية بطلاقة وأفهمهـا .. ولا تسلنى كيف .. (ليجيا) الحسناء الرشيقة التى تأتى وترحل كالظل .. بصوتها العميق الحلو .. ويدها الرخامية التى تضعها على كتفى .. وغمازتيها الرقيقتين ..

أما عيناها فحدث عنهما ولا تخش شيئًا .. عينا مهاة هما أوسع من عينى أى غزال فى وادى (نور جهاد) ـ هكذا قال (بو) ولا أدرى ما وادى (نور جهاد) هذا ـ مفعمتين بالتعبير .. كنت أمضى ليالى الصيف أتذكر عينيها وأتملى فيهما .. وأوشك أن أتذكر شيئًا ما لا أدرى كنهه حقيقة .. لكنه كان موجودًا فى نجوم الصيف وفى جدول الماء .. وفى الشهب الهاوية .. وفى الشعر ...

(ليجيا) !.. أوه .. (ليجيا) !..

كانت هذه الجوهرة هى زوجتى ..

قادتنى - وأنا مذعن لها كطفل - عبر أروقة الفكر ، وعلمتنى ما لم أعلمه عن فلسفة الكون وحقائق الأشياء ..

فقد كانت (ليجيا) عبقرية ، تملك من الذكاء ما يفوق جمالها .. وبدونها كنت أغدو طفلًا يحبو فى ظلام ..

ثم مرضت (ليجيا) ..

صارت أناملها الرقيقة كأنما قُدّت من شمع ، وانتفخت عروق جبهتها الصافية .. وأدركت أنها - ولابد - إلى الموت صائرة ..

وكانت ساعاتها الأخيرة مأساة حقيقية .. فالمسكينة كانت تحب الحياة وتتشبث بها حقًا ، وسبب تشبثها بالحياة هو الحبّ الذى لم أكن أستحقه وكانت تكنه لى وحدى ..

لكم تمسكت بيدى كطفل يخشى أن تبتلعه الأمواج ، وبكت .. فأى حمل على نفسى وضميرى ألقته هذه الطفلة !.. ولكم توسلت لى ألا أتركها تموت بهذه البساطة هى التى أحبتنى حقًا .. لكنى كنت عاجزًا كطفل أنا الآخر ..

* * *

هذا الموقف حقيقى فى حياة (بو) .. أنا واثق من هذا ..

الحب الرهيب المروّع الذى ادخره لزوجته .. هل يمكن الاستفادة منه ؟.. هل يمكن تبديل هذه اللحظة المروعة التى أنا واثق من جدارتها بالتبديل ؟..

للأسف فاتت هذه السويعات الثمينة وأنا عاجز عن إيجاد الأسلوب الأمثل للاستفادة بهذه اللحظات ..

مرّ الوقت سريعًا وماتت (ليجيا) ..

* * *

ماتت (ليجيا) وتحطمت أنا ......

غادرت هذا المكان الذى صار قفرًا .. واشتريت ديرًا متصدعًا فى مكان ما من (إنجلترا) ، منطقة غربية نائية مليئة بالوحشة ..

وشرعت أدفن أحزانى فى مهمة غريبة بعض الشىء .. هى إعادة زخرفة وتنسيق هذا الدير من الداخل ليتواءم مع مزاجى السوداوى الجديد ..

آه لو رأيتم النقوش المصرية والأفاريز الغريبة والمفروشات الشاذة والستائر المتموجة .. إذن لأيقنتم أن من انتخب هذا الذوق الغريب مخبول أو هو إلى المخبولين أقرب !

ثم وجدت نفسى محتاجًا إلى المرأة فخطبت شقراء زرقاء العينين اسمها (ليدى رووينا تريفانون أوف تريمان) .. اسم طويل ينم عن أصل عريق .. لكن لاتدعوا المظاهر تخدعكم ..

إن الأهل الذين يوافقون على أن تتزوج ابنتهم فى بيت مرعب كهذا هم أشخاص بلا خلاق أغواهم بريق الذهب لا أكثر ..!

حتى الفراش كان مريعًا .. كان من الطراز الهندى يعلوه سرادق أشبه بالأكفان .. وفى كل زاوية من الزوايا ناووس جنائزى من الأبنوس الأسود أحضروها لى من وادى الملوك بالأقصر ..

أما الجدران فملأتها بصور الرهبان المعذبين .. وأساطير النورمانديين الرهيبة .. وحتى الستائر ملأتها برسوم من هذا الطراز ..

وهكذا مضى الشهر الأول من زواجنا فى هذا المكان المروع .. كانت تكرهنى .. أدركت هذا دون جهد .. وكانت تخافنى .. ولقد سرّنى هذا ..

من تكون هذه الحشرة لتقارن نفسها بـ (ليجيا) النقية الرصينة ذات الشخصية الأثيرية السامية وعينى غزال من وادى (نور جهاد) ؟..

* * *

أخذت (رووينا) تضمر وتشحب ..

وفى الشهر الثانى من زواجنا أصابها مرض شديد، ارتفعت درجة حرارتها وراحت تهذى .. تتكلم عن أشخاص يتحركون فى البرج ..

ثم تمّ لها الشفاء .. وعاشت بلا مرض بضعة أيام ..

ثم فاجأتها علة أخرى أشد قسوة، وراحت ترتجف فى الفراش، تثور لاتفه الأسباب وترتعب لأقلها ..

حار الأطباء فى أمرها، وبدا أن حالها يتدهور من سيئ إلى أسوأ وعادت تتكلم عن الأصوات الخافتة وحركة الستائر ..

وفى ذات ليلة جلست جوارها أرمق وجهها فى شرود ..

كنت أبغى أن أعاونها لكن سدى .. فهى تزداد هزالاً على هزال .. وما لبثت أن شحبت شحوب الموتى فنهضت مسرعًا كى آتيها بزجاجة الدواء التى وصفها لها الأطباء ..

وكانت عندى مبخرة من الطراز الإسلامى تتدلى فى الصالة .. وحين مررت جوار المبخرة شعرت بشىء غير منظور يمرّ بى ببطء .. وعلى السجادة رأيت ظلاً شفافًا غير محدد الملامح يتحرك .. كأنه ظل لظل .. لكنى تجاهلت هذا الذى أراه .. وعزوته إلى إرهاقى الشديد .. وأحضرت لها كأس الدواء وقربته من شفتيها ..

وهنا رأيت شيئًا ـ كأنما فى حلم ـ هو ثلاث أو أربع قطرات من سائل ياقوتى اللون تتساقط من نبع غير منظور إلى كأسها الذى ترشف منه الآن !..

* * *

بدأ التدهور يحاصر (ليدى رووينا) سريعًا .. وأدركت أن مفعول تلك القطرات الحمراء كان كاسحًا .. لقد بدأت حالها تتدهور سريعًا .. سريعًا .. وسرعان ما أسلمت الروح فهيأها خدامى لتنزل إلى غياهب القبر ..

وهنا خطر لى خاطر ......

* * *

أنا أعرف ولع (بو) بموضوع الدفن حيًا الذى ـ كما هو واضح ـ يسبب له هاجسًا خاصًا .. صحيح أننى لا أنكر حرفًا من قصة (ليجيا) هذه ، لكن تعوّدى على أفكار (بو) يجعلنى أتوقع ما لابد أن أتوقعه .. هذه الليدى (رووينا) ما زالت حية ترزق .. وإنما جعلها هذا العقار الذى شربته مع الدواء تبدو ميتة .

إذن لن أدفنها .. سأضعها فى الفراش وأسهر جوارها بضعة أيام حتى أتأكد من موتها .....

لقد تمنى (بو) لو أن زوجته الحقيقية لم تمت .. لو أنها تفيق بعد ساعات من الغيبوبة التى دهمتها .. إذا كان ذلك صحيحًا فإن اللعب على هذه النقطة قد يحدث آثارًا إيجابية ..

* * *



بدأ التدهور يحاصر (ليدى رووينا) سريعًا .. وأدركت أن مفعول تلك القطرات الحمراء كان كاسحًا ..

ومددت (روونيا) فى الفراش ، وشرعت ساهـرًا جوارها أرمق وجنتيها الشاحبتين وشفتيها الذابلتين .. وأتأمل النواويس الأربعة المحيطة بالفراش ، وأفكر فى (ليجيا) ...

ثم حولت عينى إلى الجسد الممدد أمامى .. فشعرت بقسوتى .. واعتصرت الشفقة قلبى ..

ها هى ذى تلك العروس الفاتنة تحمل إلى حتفها بعد شهر واحد من زواجها . والسبب هو خيال (بو) المريض الذى يحركنى .. لم يستطع أن يغفر لها أنها جاءت بعد حبيبته (ليجيا) ـ التى هى (أنا بيل لى) فى ذات الوقت ـ فصمم على أن يعاقبها ..

ولماذا تزوجها إذن ؟.. يا له من سؤال !.. تزوجها كى يعاقبها طبعًا !.. ويعاقبها على ماذا ؟.. على كونـه تزوجها ..!

منطق رهيب مروّع لكنـه كان كافيًا كى يجبر هذه الحسناء ـ التى اشتراها بطل القصة بذهبه ـ على الحياة فى هذا البيت المقبض .. وعلى أن يسومها ألوان الرعب والتنكيل النفسى ..

لقد ماتت هذه البائسة لأن قلبها تحطم ..

لأنها عرفت أنها لا تمثل لزوجها سوى صورة النقيض من (ليجيا) .. صورة تذكره كل ثانية بما خسره حين ماتت (ليجيا) ..

أما قطرات السائل الأحمر التى انصبت فى كأسها فلم تكن سوى قطرات صبها (إدجار آلان بو) بين سطور قصته ليعذب الفتاة البريئة .. وليقتلها ..

لقد كان (بو) قاسيًا كالموت ذاته على أبطال قصصه الذين لم يكن لأحدهم ذنب واضح .. وحتى حينما اقترفوا القتل كان هذا بسبب الجنون الذى زرعه فيهم .. وليس لشهوة القتل ذاتها ..

أمسكت بيد البائسة الباردة كالثلج وطبعت فوقها قبلة .. قبلة جعلت الدموع الساخنة تبللها .. وهمست :

ـ سامحينى .. فلتغفر لى روحك فى عالمها الأبدى ما كان منى .. لقد ماتت (ليجيا) ومعها مات الماضى .. ولو أنك لم ترحلى لعرفت كيف أقدم لك السعادة على طبق من ذهب.

لم أرد أن أقول هذا .. لكن جو (بو) العتيق الفيكتورى جعل الكلمات تخرج من فمى مفخمة متكلفة .. كنت حين أقرأ (شكسبير) أتساءل دومًا عن الكيفية التى سيطلب بها أبطاله ـ بلغتهم الشعرية الفخيمة ـ دخول دورة المياه ..!.. لابد أنهم سيشكون من الانهار التى توشك أن تفيض لتغرق الزمن السرمدى .. أو أى شىء من هذا القبيل ...

المهم .. شعرت فجأة بشعور واهن .. كأن هناك خلجة حدثت فى الكف الشمعية التى بين أناملى ..

تحفزت فى جلستى أكثر .. إن هذه الأوهام تحدث دومًا لمن يطيلون التحديق فى الجثث .. أنا متأكد من هذا ..

ولكن .. ها هى ذى سعلة .. ثم شهيق طويل ..

إنها حية !.. كما توقعت تمامًا ..!

نهضت بصعوبة .. وهى تسعل وترتجف ..

أما أنا فلم أشعر بالذعر ولا الدهشة ..

كنت أريد فقط أن أشعرها بأننى هنا جوارها .. أشعرها بدفء ذراعى .. أريدها أن ترى جفونى الملتهبة وشعرى المبعثر لتعرف أننى لم أنم لحظة واحدة منذ رحلت ..

احتضنتها .. باردة كالثلج كانت .. لكنها حية ..

ـ لا تخافى يا زنبقتى .. أنا زوجك الذى يحمد الله العلى القدير أن رحمه من ندم يحرق أشجار الغاب جميعًا .

وشرعت أهدهدها .. أهدهدها .. كطفل صحا مذعورًا فلم ير أمه .. كانت قد ثابت إلى رشدها وعرفت أين هى ومن هى .. وفى اللحظة التالية لم أعد أشعر بكيانها .. ولا بالغرفة كلها ..

لقد ذبت فى الأبدية ..

وانتهت القصة بالنسبة لى عند هذا الحد ..

* * *

١١ ـ العـــودة ...

انظروا !.. هى ذى ليلة سعد

بين هذى الليالى الموحشة !

حشد من الملائكة المجنحين

يجلسون فى المسرح ليشاهدوا

مسرحيـة الآمـــال ..

بينما الجوقة بحرارة تعزف

ألحـان الأجـواء ..

(إدجار آلان بو)

* * *

تأرجح جسدى كالبندول أمام قرص الأفق الأرجوانى .. كانت هناك سمكتان تحلقان وتتسليان بالتهام الحروف المبعثرة هنا وهناك .. سمكتان هما اللتان رأيتهما عند (كولبى) قبل أن نبدأ هذه التجربة المريعة .. وسمعت صوتًا مدويًا يردد :



تأرجح جسدى كالبندول أمام قرص الأفق الأرجوانى ..

ـ معذرة !.. إنها البروستاتا كما تعلمون !.

عندئذ سعلت كى أزيل الجفاف من حلقى .. وصرخت :

ـ « لقد نلتَ حريتى يا (بو) ! » .

شعرت برأسى يدور ببطء متجهًا إلى الحرف الأول .. فالثانى .. فالثالث ..

ح ـ ق ـ ا ، ق ـ د ، ن ـ ل ـ ت ـ هـ ـ ا ، و ـ ن ـ ج ـ ح ـ ت ، ف ـ ى ، ت ـ غ ـ ى ـ ى ـ ر ، ا ـ ل ـ م ـ ص ـ ى ـ ر ، ا ـ ل ـ ك ـ ئ ـ ى ـ ب ـ ، ل ـ أ ـ ب ـ ط ـ ا ـ ل ـ ى !

ـ إذن يمكننى العودة إلى عالمى ؟.

و ـ د ـ ا ـ ع ـ ا ، ى ـ ا د ـ ك ـ ت ـ و ـ ر ، ر ـ ف ـ ع ـ ت !

ولم يكد يقولها حتى شعرت بالقيد الذى يعلق قدمىّ للأفق يتمزق .. وشعرت بأننى أقذف إلى بعيد .. إلى بعيد ..

★ ★ ★

إصبع يضغط على جفنى فى إصرار ...

إصبع بارد كالثلج .. صلب كالوتد ...

وسمعت صوتًا ذا صدى يقول :

ـ إنه ما زال حيًا يُرزق !.

تلك اليد تهزنى فى إصرار .. صبرًا يا فتى ..!.. رحمة بالصداع المترجرج فى رأسى .. أشعر بأن مخى هو ذلك الجزء المتحرك فى بذرة المانجو .. كنا نحك الأسفلت الخشن ببذرة المانجو محاولين الوصول إلى هذا الجزء .. الأسفلت كان ساخنًا فى (أغسطس).. وكنت أرتـدى (شورتًا) قصيرًا .. و (إلهام) كانت ترتدى ثوبًا أبيض ذا بقعة صفراء علي الكتف ..

ـ هيا يا (رفعت) !.. افتح عينيك ! .

ولماذا أفتحهما ؟.. لقد رحلت (ماجى) و (هويدا) .. ولم أعد راغبًا فى المزيد .. ما جدوى أن أرى ؟.. لقد كان الكاهن الأخير يجيد التظاهر بالبلاهة حقًا .. على حين افتضح أمر (براكسا) سريعًا ....

ـ (رفعت) !.

وفتحت عينى .. كان رأسى ملقى على المائدة المستديرة ما بين الحروف، وثمة خيط من اللعاب يسيل من فمى، وحين رفعت عينى أكثر رأيت وجهين مألوفين .. (جيرى) و (كولبى) .. كانا واقفين وقد بدا عليهما الذعر المصحوب بالأمل ..

وشعرت بـ (جيرى) يربت على كتفى ويقدم لى بعض الماء فى كوب جرعته فى نهم .. كان رأسى يتأرجح على منكبى لكننى بدأت أشعر به أخيرًا .. وبدأت أقيمه ....

أما (كولبى) فبدا لى منهارًا أقرب إلى الوهن .. وكان أنفه محمرًا وأنثاه .. وكان يجفف عرقه باستمرار مرددًا :

ـ قلت لك إنها جرعة لأتذكر !.. لا تُذكر !.

أخيرًا ـ وبعد مرور عشر دقائق ـ استطعت أن أوجه السؤال التقليدى المتوقع :

ـ « ماذا حدث بالضبط ؟ » .

★ ★ ★

قال (جيرى) فى اشمئزاز :

ـ « لقد اعترف الرجل بكل شىء .. كانت خدعة حقيرة يا (رفعت) .. لقد دسّ لك جرعة من عقار الهلوسة فى مشروب الشيكولاته ! » .

ثم ناولنى لفافة تبغ وأشعلها لى وأردف :

ـ لم تكن تجربة تحضير الأرواح هذه سوى خدعة .. كان هو من يتحكم فى تحريك (الكاشف) موحيًا لنا أن الروح تختار .. وكان يأمل أن ترى أنت رؤيا معينة بفعل عقار الهلوسة ، من ثم يستغلك كبوق دعاية لمواهبه .

جلس (سام كولبى) فى الركن متخاذلًا لاهثًا ككلب فى يوم قيظ ثم اعتذر لأنه يشعر بحاجة لدخول دورة المياه بفعل (البروستاتا) كما تعلمون ..

فما إن انصرف حتى عاد (جيرى) يواصل ما بدأه :

ـ الذى حدث يا (رفعت) هو أنه ـ كما هو واضح ـ أعطاك جرعة زائدة .. رأينا رأسك تسقط على المائدة واللعاب يخرج من شدقيك على شكل رغاو .. وهرعت أنا لأضيء الضوء الكهربى فوجدت لون الموت الأزرق على وجهك وشفتيك .. أما عن اليهودى فلا تسلنى .. لقد أصابته نوبة رعب هستيرية وشرع يولول كطفل ويردد أن الجرعة كانت قليلة ، واعترف لى بخدعته ثم خرّ على قدمىّ يتوسل كى أساعده على الخروج من هذا المأزق .. فهو نصاب لكنه ليس قاتلًا أبدًا .. وبينما أنا أفكر فى استدعاء البوليس أم الاسعاف سمعتك تسعل .. فهرعت أضغط جفنك بإصبعى محاولًا انعاشك .. وهأنتذا بيننا من جديد !.. يا لها من معجزة !.

نفثت دخان لفافة التبغ .. وغمغمت :

ـ لم يحن أجلى بعد .. ولكن كم من الوقت غبت عن وعيى !

ـ دقيقتان أو أقل قليلًا !!.

نظرت له فى حيرة وارتديت منظارى الذى كنت قد خلعته .. وقلت فى ضيق :

ـ لا أفهم .. لقد عشت سبع حيوات كاملة بينما أنت تقول إننى غفوت دقيقتين !.

لم يفهم ما قلت .. فقط تساءل :

ـ هل ستقاضيه؟ ـ هذا اليهودى ـ يمكننى أن أتولى هذه الدعوى .

ـ بالعكس ..

قلتها وأنا أنهض مترنحًا لأرمق حوض الأسماك وأضفت :

ـ سأكتب له ذلك الإقرار الذى أراده !.

!..............

★ ★ ★

خاتمة ...

(أنا الدكتور رفعت إسماعيل ، مصرى الجنسية ، ٤٤ عامًا ؛ أقر فى هذه الشهادة بكامل إرادتى ـ أن المستر (سام كولبى) لم ينجح فى إثبات أننى تناسخ لروح الأديب الأمريكى (إدجار آلان بو) لكنه برغم ذلك نجح فى جعلى أمرّ بخبرة معينة لا أستطيع تفسيرها ، إلا أنها تتعلق بمنحى القدرة على التعامل المرن مع عالم الشخصيات والأفكار التى تركها هذا الأديب العبقرى .

وأنا عاجز تمامًا عن تمييز ما إذا كانت موهبة المستر (كولبى) موهبة سيكولوجية أم ميتافيزيقية .. لكنى أعرف حتمًا أننى اجتزت بفضله خبرة نادرة لن يكون سهلاً علىّ أن أنساها) .

د . رفعت إسماعيل

جران كونكورس ١٩٦٨

* * *

كانت تلك هى السطور التى كتبتها لـ (سام كولبى) على ورقة وجدتها هناك ، أمام نظراته الذاهلة .. كأنه يقول لى : ولكن ما دمت أؤكد لك أننى نصاب !..

وتحاملت لأنهض .. وتأبطت ذراع (جيرى) قاصدًا الباب .. ولم أنس طبعًا أن أحيى (كولبى) تحية المساء .. من المؤكد أننى لن أرى هذا الرجل ثانية ، ولست نادمًا على ذلك ..

وفى طريق العودة حكيت لـ (جيرى) ملخصًا لكل ما مررت به فى هذه التجربة المريرة .. قال لى وهو يتأمل الأضواء من نافذة السيارة ويداه على المقود :

ـ فى الواقع يا (رفعت) أنا لا أدرى حقًا ما أعتقده .. ولكن دعنى أحدثك عن تجربتى مع الغوص فى (فلوريدا) .. كانت هذه هى المرة الأولى لى ، وحدث خلل فى جهاز (الأوكسجين) مما عطّل وصوله للدماغ نهائيًا .. فى تلك اللحظات عشت ـ لعدة أيام كاملة ـ مغامرة شديدة الإمتاع مع (زورو) و (طرزان) .. وصرت (جيمس بوند) فى عملية خاصة بصاحبة الجلالة ملكة بريطانيا .. رأيت كل هذه الأحداث بجلاء كامل .. ثم وجدت نفسى ممددًا على الشاطئ وهناك من يحاول إخراج الماء من معدتى .. وعرفت أن تجربة الغرق هذه لم تدم سوى دقيقة .. تصور هذا !.. دقيقة

رأيت فيها كل هذه الأحداث .. بل وأن الهلوسة الزمنية جعلتنى أشعر ـ عن يقين تام ـ بأنها استغرقت دهرًا .

ـ ماذا تعنى ؟.

ـ أعنى أنك كنت تهلوس طبعًا .

تثاءبت وأرحت رأسى على ذراعى :

ـ هاآآآآه .. ربما يا (جيرى) .. ربما .. غير أننى عشت فى قصص لـ (بو) لا أنكر أننى أعرفها أبدًا .. اسمع .. هل هناك قصة له تدعى ... ويـ ... ويـ ... ويليام ويلـ ...؟.

ـ (ويليام ويلسون) !.. إنها قصة شهيرة !.

ـ أرأيت ؟.. أنا عشت أحداث هذه القصة ولم أكن قرأتها قط .. كيف تهلوس بشىء لا تعلمه ثم يتضح لك أنه موجود حقًا ؟.. ألا تجد فى كل هذا شيئًا خارقًا للطبيعة ؟.

قال وهو يختلس النظر لوجهى :

ـ أنت قرأت بالتأكيد هذه القصة فى الماضى .. وتكفلت الهلوسة باستخراجها من أعماق منجم عقلك الباطن .

ثم بلع ريقه وتساءل فى حزم ممزوج بشىء من ضجر :

ـ ماذا تحاول أن تقنعنى به بالضبط ؟!.

★ ★ ★

حقًا لا أدرى ما أحاول أن أقنعك به ....

إن كل نظرياتى عن الروح المعذبة التى لحقت بجلستنا ؛ وحاولت أن تتصل بنا ؛ وحاولت أن تصحب روحى فى رحلة إلى عالمها الكئيب ... كل هذه مجرد نظريات .....

لقد كان (بو) معى .. كان فى داخلى ....

وحملنى معه إلى عالم الأفكار التى أفرزها .. كأنه كان يريد أن يرينى مدى عذابه وألمه بتلك النفس الحساسة المرهفة التى وهبها الله له ، ربما كان يريد من يتألم معه .. وربما كان بحاجة إلى الصحبة أو التسلية ....

لا أدرى .. كل ما أعرفه هو أننى عشت فى عالم غريب .. عشت سبع حيوات كاملة .. لكننى لم أعشها كـ (بو) .. ولكن كبطل من أبطال قصصه يحاول جاهدًا تغيير قدره ..

وقد نجحت فى هذا ....

أنا لا أومن بتناسخ الأرواح ..

لكنى أومن بالأرواح ذاتها ...

وفى لحظة كنت فيها أقرب ما أكون إلى الموت ، شفت روحى إلى الحد الذى استطاعت فيه أن تسافر إلى عوالم أخرى لم يوجدها سوى خيال عبقرى معذب ....

لقد كان (كولبى) نصابًا .. لاشك فى هذا ..

لكنه أعطاني حلمًا سأظل أذكره ما حييت ...

* * *

أم تراه عقار الهلوسة قد تسبب في كل هذا ؟.. ربما ..

* * *

سأترك تساؤلاتي العديدة وحيرتي .. وأنهي هذه القصة الغامضة لأبدأ معكم قصة أخرى .....

في هذه المرة تقابلون مشعوذًا آخر هو د . (لوسيفر) .. ولكن حذار .. حذار !.. هذا الرجل يمكن أن يكون خطيرًا .. إنه يحمل معه أوراق (التاروت) ويعرف الكثير عن الجالسين معه .. و .....

ولكن هذه قصة أخرى .

د . رفعت إسماعيل
القـاهـرة

[تمت بحمد الله]

* * *

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

٤١٢١٥٩

أسطورة بو

الاسم : إدجار آلان بو.
المهنة : كاتب قصص رعب من الطراز الأول . إن قراءة قصص الرعب في فراشك لشيء ممتع .. لكن الخطر كل الخطر هو حين تعبر الحاجز الواهي الفاصل بين الواقع والخيال ، وتجد نفسك شخصية بائسة حائرة في عوالم (بو) الكابوسية !



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : حكايات التاروت

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة